الصحبة في القرآن

دكتـــور

الحسنين عبد الفتاح عبد الرحمن

الشافعيّ خليف

مدرس التفسير وعلوم القرآن

كلية أصول الدين * جامعة الأزهر

بالقاهرة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، نحمدك ربنا ونستعين بك، ونستهديك ونستغفرك، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا..من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد..

فإن الناظر في القُرْآن الكَريم يجد أنه قد اعتنى بقضايا معينة، وركز عليها، وهذا دليل على عظم هذه القضايا وأهميتها، وقد غلب على طريقة القرآن الكريم بث الموضوع الواحد في مواضع متعددة، وتفريق القصة الواحدة في مواطن مختلفة، وقد اهتم العلماء بجمع الآيات المتعلقة بموضوع واجد على طريقة مخصوصة؛إيمانا منهم بأن القرآن الكريم حين يعرض لموضوع ما؛فلا بد أن يكون هذا الموضوع على درجة بليغة من الأهمية، وإدراكا منهم أن الموضوع الواحد كالقصة الواحدة، حين تجمع أجزاؤه تكتمل عناصره، وتتضح معالمه.

وقد تأملت في موضوعات القُرْآن الكَريم فلفت نظري حديث القرآن عن الصُحْبَة والصداقة، فوجدت موضعا يبرز خطرها وأثرها، وموضعا يبرز بعض حقوقها، وموضعا يبرز بعض نماذج للصحبة بنوعيها....الخ، ولما كان هذا الموضوع معلوما أثره وخطره، وأهميته وفضله، فقد ازداد هذا الأمر تأكيدا وقوة، وزاد خطره وأثره وضوحا وجلاء بتناول القرآن الكريم وتعرضه له، وظهر بالتتبع والتأمل كذلك اكتمال عناصر هذا الموضوع وأركانه في القرآن الكريم، فرغبت أن أدلي بدلوي، وأن أتشرف بالكتابة في أحد موضوعات القرآن الكريم؛مواصلة واستتباعا لمشايخنا الأجلاء الذين بدءوا هذا الغرس المبارك، ودعوا إلى مواصلة البحث فيه..ولما كان لفظ الصُحْبَة أعم وأشمل من لفظ "الخلة والصداقة"ونحوهما آثرته

عنوانا على هذا البحث ليشملها جميعا.

هذا.. وقد رتبت هذا البحث على النحو التالي:

- ❖ **المقدمة**:عرّفت فيها بالموضوع وأهميته، وأسباب عنايتي به، وطريقة تناوله.
- ❖ **التمهيد**:في التعريف بعلم التفسير الموضوعي، وتقدمة لموضوع الصُّحْبَة.

ثم تأتي عناصر البحث تباعا.. الأولى فالأولى، حسب مقتضيات الموضوع:

- ❖ بيان معاني الصُّحْبَة في اللغة، ومعاني بعض المرادفات للفظ.
- ❖ أنواع الصُّحْبَة.
- ❖ بيان أهميتها ومبلغ الحاجة إليها.
- ❖ فضل صحبة الأخيار.
- ❖ أثر الصُّحْبَة وخطرها.
- ❖ صفات الصاحب الصالح.
- ❖ حقوق الصُّحْبَة وآدابها.
- ❖ نماذج لصحبة الأخيار والأشرار في القُرْآن الكَرِيم.

إلى غير ذلك من الموضوعات الفرعية...

هذا.. وإني أسأل الله العليّ القدير أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتي، وأن يكون من العلوم التي ينتفع بها، والله وليّ التوفيق.

تمهيد

في التعريف بعلم التفسير الموضوعي وتقدمة لموضوع الصُّحْبَة

إن موضوع هذا البحث "الصُّحْبَة" يتم تناوله على قواعد ومنهج التفسير الموضوعي، وهذا يستدعي التعريف بهذا العلم والتقدمة لهذا الموضوع.

أولاً:التعريف بالتفسير الموضوعيّ

التفسير الموضوعيّ هو:علم يبحث في قضايا القُرْآن الكَريم المتحدة معنىً أو غاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها على هيئة مخصوصة، بشروط مخصوصة؛لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع.(١)

ففي التفسير الموضوعيّ يلتزم المفسر موضوعاً بعينه لا موضعاً، فيجمع الآيات الكريمة من مواضعها، ويقيم منها بناءً متكاملاً يقرر موقف القرْآن الكريم من قضية ما، وقد تدخل ألوان التفسير المتعددة لخدمة هذا الموضوع، فتأتي تبعا للقصد الأول.

والحق إن التفسير الموضوعيّ قديم النشأة، إلا أنه لم يعرف باعتباره علما مستقلا إلا في العصر الحديث، حيث بدأت الدعوة إليه، ووضعت قواعد وضوابط له، يقول الأستاذ الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد:التفسير الموضوعي اصطلاحٌ مستحدث، صار عنوانا للونٍ جديدٍ من ألوان التفسير.(٢)

وقد كتب في موضوعات القُرْآن الكَرِيم-في القديم والحديث-كثيرٌ من الأبحاث والرسائل:

فمن القديم:أقسَام القُرْآن، أمثال القُرْآن، مبهمات القُرْآن...وغيرها.

ومنها في العصر الحديث:المرأة في القُرْآن، الإنسان

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعيّ صـ ٢٠

(٢) المرجع السابق صـ ١٩ بتصرف يسير.

في القُرْآن...وغيرها.

ثم تتابعت الكتابة بغزارة في موضوعات القُرْآن، لا سيما الرسائل العلمية في جامعة الأزهر، ومن ذلك:منهج القرْآن في تثبيت الرسولﷺمنهج القرْآن في تثبيت المؤمنين، الأمانة في القرْآن، الزينة في القرْآن، بنو إسرائيل في القرْآن الكريم.

وما تزال الكتابة في التفسير الموضوعيّ تتتابع وتتكاثر، لا سيما في الرسائل العلمية بكلية أصول الدين جامعة الأزهر، والله نسأل أن نجد موسوعة شاملة تجمع فيها هذه الموضوعات القرآنية؛لتكون زادا نافعا للعلماء والدعاة والدارسين، وربنا الرحمن المستعان.

ثانيا: تقدمة لموضوع الصُّحْبَة

خلق اللهﷻالناس جميعا من ذكر وأنثى، آدم وحواء؛فمرجع الخلق كلهم إلى أصل واحد، وهذا أدعى إلى التواصل والتراحم، وعدم التعالي أو التفاخر، قال اللهﷻ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١) ثم إن الزمانَ قد امتد، والقرونَ قد تعاقبَت من بعد أبينا آدمعليه السلام، فتباعدت العلاقات القريبة، ووجدت علاقات أخرى غير علاقة النسب، هي علاقات الجيرة، المصاهرة، الرفقة الزمالة، والصَّداقة، وهذه العلاقات لها أهميتها وفضلها، لها أثرها وخطرها، بل لها حقوق واجبة، كما أن لعلاقات الأُبوّة والأخوّة حقوقا واجبة، ولها أنواع وآداب وشروط، وها نحن هنا نفرد الصُّحْبَة والصَّداقة ببحث موضوعيّ، نعالج فيه ما تيسَّر من هذه المطالب.

إن الصَّدَاقَة معنى كبير، وله دلالات عظيمة، ويكفي لتأكيد تلك الحقيقة أن نعرف أن لفظها مأخوذ في أصل اشتقاقه من"الصدق"الذي هو خلاف الكذب، أو من"الصَّدَق"الذي هو الصُّلبُ المُستَوِي من الرِّماحِ والرِجال، مما يعني قوة تلك

(١) سورة الحجرات:آية ١٣

العلاقة وشدتها(١)، وهذا ما سوف يظهر من خلال الحديث عن المعاني اللغوية للفظ الصُّحْبَة ومرادفاته.

وحين يمتنّ اللهﷻعلى إنسان بالصاحب الصالح؛يتحقق لهذا الإنسان نعمة من أعظم النعم؛حيث يكون لهذا الصديق دوره الذي لا يقل أحيانا عن دور الأخ والابن والقريب، فهو يعوده إن مرض، ويعينه إذا احتاج، ويشور عليه إذا ألمت به مشكلة، ويخفف عنه إذا نابته مصيبة، وإن الإنسان ليقضي وقتا من أسعد الأوقات بين رفاقه وخلانه، كما هو الحال حين يكون بين أهله وذويه، وهذا ما سوف نتبينه تفصيلا عند حديثنا عن أهمية الصُّحْبَة، ومدى الحاجة إليها.

ومن آيات اللهﷻالظاهرة وعجائب صنعه في الأرواح والقلوب، أن نجد التعلق والتجاذب بين الناس يتم على نحو عجيب من التناسب؛لا سيما حين لا تكون له علاقة بعمل، أو مهنة، أو تخصص أو حرفة، بل ولا بسن أو موطن، إنما يتم بحسب الروح والقلب، بحسب الطيب أو الخبث، على حسب ما جاء في الحديث الشريف«الأَرْوَاحُ جُنودٌ مُجَنَدَة فمَا تَعَارَفَ منهَا ائتلف ومَا تناكرَ منهَا اختلف»(٢)وكما ورد في قصة المرأة المكية(المرأة المزاحة)التي كانت تضحك النساء، وكانت بالمدينة أخرى فنزلت المكية على المدنية فدخلت على عائشة رضي الله عنها فأضحكتها فقالت:أين نزلت؟ فذكرت لها صاحبتها فقالت صدق الله ورسوله، سمعت رسول اللهﷺيقول:«الأَرْوَاحُ جُنودٌ مُجَنَدَة..»الحديث(٣).

وقد يندهش الإنسان حين يجد بين شخصين تعلقا ملموسا، وصحبة قوية، وليس بينهما من وجوه التناسب في ظاهر الأمر شيء، ولكن عند التأمل الدقيق، وبمرور الوقت، وتعاقب الحوادث، يُعرف ما كان مجهولا، ويُدرك ما كان خافيا، من أن الشخصين كانا على درجة من التناسب والانسجام ما كان يخفى؛إذ الأرواحُ جنودٌ مجندة، يتآلف

(١) يأتي تفصيل هذا في مبحث المعاني اللغوية للفظ "الصحبة" ومرادفاتها.
(٢) متفق عليه.
(٣) الحديث مع القصة أخرجه أبو يعلى في مسنده ٣٤٤/٧ مع اختلاف يسير،وقال محققه الشيخ حسين أسد:إسناده صحيح،وأخرجه الحسن بن سفيان في مسنده بسند حسن(الحافظ العراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء) أما الحديث المرفوع فمتفق عليه،وقد تقدم تخريجه.

المتعارف منها، ويتناكر المختلف، وفي هذا يقول الإمام الغزاليّ:إن في ائتلاف القلوب أمرا غامضا وخفيّا؛فإنه قد تستحكم المودة بين شخصين من غير ملاحة في صورة ولا حسن في خلق أو خلق، ولكن لمناسبة توجب الألفة والموافقة؛فإن شبه الشيء ينجذب إليه بالطبع، والأشياء الباطنة خفية، ولها أسباب دقيقة ليس في قوة البشر الاطلاع عليها، عبَّر رسول الله ﷺ عن ذلك حيث قال:«الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَدَة..»الحديث.(١)

بل قد نجد اثنين متلازمين، ليس بينهما من وجوه التناسب أو التقارب أو الانسجام شيء، ثم ما يلبث أن ينفر كل منهما عن صاحبه؛فندرك أنها ما كانت إلا صحبة مؤقتة، وملازمة طارئة، لم تلبث أن تنحل رابطتها وتنتهي؛ولذلك قال بعض الحكماء:كل إنسان يأنس إلى شكله؛كما أن كل طير يطير مع جنسه، وإذا اصطحب اثنان برهة من زمان ولم يتشاكلا في الحال فلا بد أن يتفرقا، وهذا معنى خفيّ تفطن له الشعراء حتى قال قائلهم:

وقائل كيف تفارقتما ... فقلت قولا فيه إنصاف

لم يك من شكلي ففارقته ... والناس أشكال وآلاف

وقد نجد اثنين بينهما من التناسب والانسجام القدر الكبير وليس بينهما صحبة ولا علاقة؛إذ بينهما بحسب صحبة الروح ما لم تحققه صحبة الأبدان، حميدة أو خبيثة؛فالصالحون على اختلاف أزمانهم وأوطانهم بينهم من التناسب والانسجام وتعلق الأرواح ما لم يتوافر للأبدان، فبعض الناس حين يسمع أو يقرأ أحداث التاريخ يجد روحه متعلقة بشخص ما، قد لا يكون صاحبَ دور بارز عن غيره، بل قد يكون دور غيره أهم وأبرز، دع عنك تعلق عامة المسلمين روحيا بالخلفاء الراشدين، وكبار الصحابة، أمثال أبي هريرة وبلال وعمار وصهيب وابن عوف، وسعد بن معاذ وغيرهم ﷺ.

يقول الغزاليّ:الحق أن المشاهدة والتجربة تشهد للائتلاف عند التناسب، والتناسبُ في الطباع والأخلاق باطنا وظاهرا أمرٌ مفهوم، وأما الأسباب التي أوجبت تلك المناسبة

(١) إحياء علوم الدين بتصرف يسير ٢/ ١٤٢

فليس في قوة البشر الاطلاع عليها، وروي في هذا:«لَوْ أَنَّ مُؤمنا دَخل إلى مَجْلس فيه مائة مُنافق ومُؤمن وَاحِدٌ لجَاءَ حَتى يَجْلِسَ إِلَيْه، وَلَوْ أَنَّ مُنَافقاً دَخَل إلى مَجْلس فيه مائة مُؤمن ومُنَافق وَاحدٌ لجَاءَ حَتى يَجْلِسَ إِلَيْه»(١) وهذا يدل على أن شبَهَ الشيء منجذب إليه بالطبع وإن كان هو لا يشعر به(٢)، ومناسبة هذا الموضوع في حديثنا عن نماذج للصحبة بنوعيها إن شاء الله ﷻ.

والصُّحبَة أعم من الصداقة؛فالآداب والخصال المطلوبة للصحبة مطلوبة لكل صحبة، سواء أكانت زمالة، أو جوارا، أو رفقة سفر، أو حتى صحبة سجن؛إنها آداب وخصال المعاملة مع الآخرين عامة؛لكنها أولى للصاحب الصديق.

ولقد حاولت-وأنا أكتب في هذا الموضوع-أن أعايشه، وأنظر:ماذا أنتظر من صديقي؟وما الذي ينتظره مني؟حاولت أن أوفي لهذا الموضوع حقه؛لأنه موضوع واقعي ملموس؛ولأن الصديق كالأخ؛فقد قيل:رُبَّ أخ لك لم تلده أمك؛ولأن ما أتمنى أن أراه في الصديق يتمناه هو الآخر؛لذلك حرصت على أن تكون الآداب والحقوق ممكنة التحقق؛لا متخيلة، لا سيما في زماننا هذا، وإن لم يمنع أن أسوق مثالا على عظمة الصداقة عند السلف.

وقد ورد أن أحدهم لما قرأ آدابَ وحقوقَ الصُّحْبَة استعظمها، وقال:أين يوجد مثل هذا؟!فقيل له:كن هو تجده..والحق أنه لن يفقدِ الخير من يسديه، ولن يحرم الجود من يجود، ومن يُعْطِ يُعْطَ؛وفي المقابل:من يَبخل يُبخل عليه.

وليس بوسع أحد أن يستقصي كل الصفات الطيبة؛كما أنه ليس بالواقع المتحقق، ليس باليسير الهين أن نطلب اكتمال كل الخصال الطيبة في كل صاحب أو صديق؛فليس في الوجود من كملت خلاله، وعظمت خصاله، واستجمع كل صفات الحسن والخير سوى الأنبياء، وفي مقدمتهم سيد المرسلين محمد ﷺ، ولكن يُتطلب الصديق الذي غلبت فيه

(١) لم أقف عليه عند غير صاحب الإحياء،ولم يعلق عليه الحافظ العراقيّ بتخريج أو غيره،وإنما ذكرته-بصيغة التمريض-استئناسا للموضوع،وإلا ففي الشواهد والأدلة الثابتة كفاية.

(٢) إحياء علوم الدين بتصرف يسير ٢/١٤٢

خصال الخير على غيرها، وبرزت خلاله الطيبة وعظمت، بل إن الإنسان الصَّالح ذا الخصَال الطيِّبة قد يَصدر عنه الخطأ، أو يُرى منه في موطن من المواطن بعض الخصال غير الجيدة، من جبن أو بخل..الخ؛فكل ابن آدم خِطِاء، ولا عصمة ولا كمال لغير النبيين؛وفي مقابل هذا فإنه يُتطلب من الصديق العفو عن زلات صديقه، وإذا كان العفو يُحمد مع العامة فما بالنا مع الأصدقاء.

وقد يعرض للإنسان عارض فيتردى ويتخبط، ثم ما يلبث أن يعود إلى أصله النبيل، ولعل هذا المعنى هو الذي وصف به المسلم الحق، فهو مثل النبتة من الزرع كما شبهه النبيﷺحيث قال:(مثل المؤمن كالخامة من الزرع تفيئها الريح مرة وتعدلها مرة ومثل المنافق كالأَرزَة[1]لا تزال حتى يكون انجعافها[2]مرة واحدة)[3] وليعلم الإنسان أنه كما يعرض له يعرض لإخوانه، وكما يعرض لإخوانه يعرض له، فليلتمسْ لهم الأعذار، وليعف لهم عن الزلات، ولا يجعل موقفا عارضا يعكر ما بينهم من صافي الود، وهذا ما سوف يذكر تفصيلا عند الحديث عن آداب الصُّحْبَة وحقوقها.

ومن عظيم الأمر أن نجد القُرْآن الكَريم يهتم بعلاقة الصُّحْبَة اهتماما كبيرا حتى ليتكرر ذكرها في مواضع متعددة، تشمل عالمي الدنيا والآخرة، ويعطي لهذه العلاقة من العناية ما لا يتصور تصورا يناسب الموضوع إلا باستجماع هذه المواضع، وعرضها عرضا موضوعيا على نحو مخصوص، على ما هو معروف في علمنا هذا، علم التفسير الموضوعيّ، وهذا ما أردت أن أبرزه من خلال بحثي هذا....فلنول وجوهنا تلك الوجهة، ماضين إلى ما قصدنا إليه، والله المستعان، وعليه التكلان.

(١) الأَرزَة(مفتوحة الراء) والأَرْزُ بالتحريك:شَجَرُ الأَرْزَن،وقيل:هي الآرزة،مثل فاعلة،وهي الثابتة في الأرض،وقد أرزت تأرز اروزا. (غريب الحديث للهرويّ١/ ١١٧

(٢) انجعافها:أي اقتلاعها،يقال:جَعَفَه، كمنعه:صَرَعَهُ، كَأَجْعَفَهُ، وجعف الشجرة:قلعها، كاجتعفها فانجعفت.

(٣) متفق عليه،واللفظ للبخاري،وفي رواية له:(مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع من حيث أتتها الريح كفأتها فإذا اعتدلت تكفأ بالبلاء والفاجر كالأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء)

المعاني اللغوية

لألفاظ الصُّحْبَة والصداقة وما يؤدي معناها

لما كان موضوع بحثنا هو الصُّحْبَة، وما يؤدي معناها، كلفظ"صديق"و"خليل" و"عشير"، و"قرين".. الخ، فإننا نبدأ بالبحث في معاني بعض هذه الألفاظ في اللغة.

أولا:الصَّاحب

يقال:صحبه يصحبه صُحبة(بالضمّ)وصَحابة(بالفتح)، وصِحابة (بالكسر)عن الفراء وحده.

وجمع(الصاحب):

- صَحْب، كـ:راكب وركْب.
- صُحبة، كـ:فاره وفرهة.
- صِحاب، كـ:جائع وجياع.
- صُحْبَان، كـ:شاب وشبان.

والأصحاب:جمع(صَحْب)كـ:فَرْخ وأفراخ، والصَّحابة:الأصحاب، وهي في الأصل مصدر، وجمع الأصحاب:الأصاحيب، ومادة هذه الكلمة(ص.ح.ب)أصل واحد يدل على مقارنة شيء ومقاربته، والأصل أن الصاحب هو الملازم، إنسانا-كان-أو حيوانا، أو مكانا، أو زمانا، ولا فرق بين أن تكون مصاحبته بالبدن-وهو الأصل والأكثر-أو بالعناية والهمة، ولا يقال في العرف إلا لمن كثرت ملازمته، ومن هذا القبيل يطلقون على العاصي-صاحب المعاصي؛لملازمته لها[1]كما يطلق على أفراد مجتمعين متلازمين بحكم الغالب، سواء أكان الجامع لهم مكان، أو زمان، أو عقيدة، أو حدث، أو كانوا أتباعا لمتبوع واحد، أو نحو هذا، ومن ذلك:أصحاب الجنة، وأصحاب

(١) كما ترجم الإمام البُخَارِيّ لباب في صحيحه باسم بَاب المَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ وَلا يُكفَرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا إِلا بِالشِّرْكِ..(صحيح البُخَارِيّ،ك.الإيمان،الباب المذكور) .

النار[١] وأصحاب الأعراف[٢] وأصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة[٣] وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال[٤] وأصحاب الصراط السوي[٥] وأصحاب السعير[٦] وأصحاب الجحيم[٧] وأصحاب السبت[٨] وأصحاب الأخدود[٩] وأصحاب الفيل[١٠] ويقال كذلك: أصحاب السفينة[١١] وأصحاب الرس[١٢] وأصحاب الأيكة[١٣] وأصحاب مدين[١٤] وأصحاب موسى[١٥]

---

(١) جاء التعبير بأصحاب النار في القرآن الكريم كثيراً، وقد أريد به في كل مرة الكافرون المعاقبون بها، إلا في موضع واحد، فإنه أريد به جزئية النار من الملائكة، وهذا في قوله ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا..﴾ سورة: المدثر، آية: ٣١

(٢) كما جاء في قوله ﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون﴾ سورة: الأعراف، آية: ٤٨: ٤٦

(٣) في قوله ﴿فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة﴾ سورة: الواقعة، آية: ٨،٩

(٤) في قوله ﴿عربا أترابا لأصحاب اليمين ثلة من الأولين وثلة من الآخرين وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال﴾ سورة: الواقعة، آية: ٤١: ٣٧

(٥) في قوله ﴿قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى﴾ سورة: طه، آية: ١٣٥

(٦) في قوله ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ سورة: الملك، آية: ١٠

(٧) في قوله ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ سورة: الحديد، آية: ١٩

(٨) في قوله ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا﴾ سورة: النساء، آية: ٤٧

(٩) في قوله ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ سورة: البروج، آية: ٤

(١٠) في قوله ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ سورة: الفيل، آية: ١

(١١) في قوله ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾ سورة: العنكبوت، آية: ١٥

(١٢) إنما سموا بأصحاب الرس لأنهم رسوا نبيهم في الأرض (التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٤/ص٧٢).

(١٣) في قوله ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد﴾ سورة: ق، آية: ١٢: ١٤ وإنما سمي أصحاب الأيكة بهذا؛ لأنهم كانوا أصحاب غياض ورياض (أضواء البيان للشنقيطي ج٢/ص٢٨٩).

(١٤) في قوله ﴿وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير﴾ سورة: الحج، آية: ٤٤

(١٥) في قوله ﴿فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾ سورة: الشعراء، آية: ٦١

وأصحاب القرية[١] وأصحاب الكهف[٢] وأصحاب السجن[٣] وأصحاب القبور[٤] وصاحب القرآن، وصاحب الصيام[٥]..وغير هذا كثير في القرآن وفي السنة، وفي اللغة عامة.

ويقال لمالك الشيء: هو صاحبه، وقد يضاف إلى مَسُوسه، نحو: صاحب الجيش، وإلى سائسه، نحو: صاحب الأمير.[٦]

وقال صاحب البصائر: قد ورد "الصاحب" في القرآن الكريم على خمسة أوجه:

الأول: بمعنى الجنسية، ومنه قوله ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾[٧] وقوله ﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين﴾[٨] وقوله ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾[٩] وقوله ﴿ما ضل صاحبكم وما

---

(١) في قوله ﴿واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون﴾ سورة: يس، آية: ١٣

(٢) في قوله ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا﴾ سورة: الكهف، آية: ٩

(٣) في قوله ﴿يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾ سورة: يوسف، آية: ٣٩

(٤) في قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ سورة: الممتحنة، آية: ١٣

(٥) ومما ورد في ذلك: قوله ﷺ "الصيام والقرآن يشفعان لصاحبهما يوم القيامة" وفي الحديث عن زرارة بن أوفى أن ﷺ سئل أي العمل أفضل قال الحال المرتحل قيل: ومن الحال المرتحل؟ قال: صاحب القرآن يضرب من أول القرآن إلى آخره ومن آخره إلى أوله كلما حل ارتحل (سنن الدارمي، ك. فضائل القرآن، باب في ختم القرآن، ح ٣٣٤١) (وفيه صالح المري: ضعيف، وإسحاق بن عيسى صدوق، وبقيتهم ثقات) وعن خالد بن معدان قال إن "الم. تنزيل" تجادل عن صاحبها في القبر..(سنن الدارمي، ك. فضائل القرآن، ب. في فضل سورة "تنزيل" السجدة = و"تبارك"، الحديث فيه عبد الله بن صالح: وهو صدوق كثير الغلط ثبت في كتابه، ومعاوية بن صالح: وهو صدوق له أوهام، وبقيتهم ثقات) وعن الشعبي أن ابن مسعود كان يقول: يجيء القرآن يوم القيامة فيشفع لصاحبه فيكون له قائدا إلى الجنة ويشهد عليه ويكون له سائقا إلى النار (سنن الدارمي، ك. فضائل القرآن، ب. فضل من قرأ القرآن. فيه عاصم: وهو صدوق له أوهام، وبقيتهم ثقات).

(٦) يراجع: بصائر ذوي التمييز، بصيرة في (صحب) ٣/٣٨٦، وبصيرة في (الأصحاب) ٢/١٤٨، ١٤٧، ومعجم مقاييس اللغة، مادة (ص.ح.ب) ٢/٣٤

(٧) سورة التكوير آية ٢٢

(٨) سورة الأعراف: آية ١٨٤

(٩) سورة سبأ: آية ٤٦

غَوَى﴾[١]أي الذي هو من جنسكم.

قال ابن تيمية:ذكره باسم الصاحب لما في ذلك من النعمة به علينا؛إذ كنا لا نطيق أن نتلقى إلا عمن صحبناه وكان من جنسنا.[٢]

أقول:نعم، في ذكره بلفظ(صاحبكم)ما ذكر، كما أن فيها معنى آخر، وهو:

إنه صاحبكم؛قد نشأ بينكم، وتعرفون خلقه وصدقه وأمانته، وتعلمون أنه لم يعرف بكهانة ولا سحر ولا جنون، فلا ينبغي منكم -والحالة هذه -أن تفتروا عليه بشيء من هذا أو تكذبوه، والمقصود أنكم أولى الناس بتصديقه واتباعه لأنكم صحبتموه وعرفتموه.

الثاني:بمعنى حقيقة الصُحْبَة، ومنه قوله ﷻ ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[٣].

الثالث:بمعنى السكنى,وفراغ البال، ومنه قوله ﷻ ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ [٤]أي سكانها.

الرابع:بمعنى المرافقة والموافقة، ومنه قوله ﷻ ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾[٥]

الخامس:بمعنى التصرف والاستيلاء، ومنه قوله ﷻ ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً..﴾ [٦] أي الموكلين بها، المتصرفين فيها، لا المعذبين بها.[٧]

ومن معاني مادة(صحب) حفظ وإجار ومنع، كما في قوله ﷻ ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [٨]

ومعنى الآية:أن الله ﷻ ذكره يقول:ألهؤلاء المستعجلي ربهم

(١) سورة النجم :٢
(٢) فتاوى ابن تيمية ج.التفسير ج١٢/ص٢٧٠
(٣) سورة التوبة:آية٤٠
(٤) سورة يس:آية٥٥
(٥) سورة الكهف:آية٩
(٦) سورة المدثر :آية٣١
(٧) البصائر بصيرة في(الأصحاب)٣/٢،١٤٧/٣٨٦ بتصرف يسير.
(٨) سورة الأنبياء:آية٤٣

بالعذاب آلهة تمنعهم، إن نحن أحللنا بهم عذابنا، وأنزلنا بهم بأسنا من دوننا؟ ومعناه:أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم منا؟ ثم وصف جل ثناؤه الآلهة بالضعف والمهانة، وما هي به من صفتها، فقال:وكيف تستطيع آلهتهم التي يدعونها مِن دوننا أن تمنعهم منا وهي لا تستطيع نصر أنفسها﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾عن قتادة:معناه:لا يصحبون من الله بخير، وعن مجاهد:ولا هم يحفظون، وقال ابن عباس:يمنعون، وعنه:يجارون؛والعرب تقول:أنا لك جار وصاحب من فلان؛أي مجير منه؛قال الشاعر:

ينادي بأعلى صوته متعوذا ليصحب منها والرماح دواني

قال أبو جعفر:وأولى الأقوال في ذلك هذا الذي حكيناه عن ابن عباس، وأن﴿هم﴾من قوله:﴿ ولا هم﴾من ذكر الكفار، وأن قوله:﴿ يُصْحَبُونَ﴾ بمعنى:يجارون يصحبون بالجوار؛لأن العرب محكيّ عنها:أنا لك جار من فلان وصاحب، بمعنى:أجيرك وأمنعك، وهم إذا لم يصحبوا بالجوار، ولم يكن لهم مانع من عذاب الله مع سخط الله عليهم، فلم يصحبوا بخير ولم ينصروا.[١]

ثانيا:الصديق

يقال:صدق يصدق صدقا، ويقال أيضا:صدقه الحديث، وتصادقا في الحديث، وفي المودة والصداقة، والمصادقة:المخالة، والرجل صديق، والأنثى صديقة، والجمع أصدقاء، والصدقة:ما تصدقت به على الفقراء، والصداق(بفتح الصاد وكسرها):مهر المرأة، وكذا الصَّدُقة.

ومادة هذه الكلمة(ص.د.ق) أصلٌ يدل على قوة في الشيء قولا وغيره، من ذلك الصدق خلاف الكذب؛سمي لقوته في نفسه؛ولأن الكذب لا قوة له، هو باطل، وأصل هذا من قولهم:شيء صَدْق، ورمح صَدْق:أي صلب، والصداق:صداق المرأة؛سمي بذلك لقوته؛وأنه حق يلزم، والصداقة مشتقة من الصدق في المودة، والصداقة:صدق الاعتقاد في المودة، وذلك مختصٌ بالإنسان، ولفظ الصديق يقتضي شدة مساهمة ونصرة،

(١) جامع البيان للطبري١٧/٣١،والجامع لأحكام القرآن للقرطبي١١/٢٩١،وتفسير الجلالين١/٤٢٤

وهو فعيل من صدق الود.[١]

ثالثا:الخليل

يقال:خَل الرجل، وأُخل به:احتاج، ورجل مخل، ومخِل، وخليل، وأخل:معدمَ فقير، واختل إليه:احتاج، والخلة(بالفتح):الحاجة، والخصلة، والفقر، والخلل:هو الفرجة بين الشيئين، وجمعه:خلال، نحو:خلل الدار والسحاب وغيره، والخلة:الصَّدَاقة المختصة التي لا خلل فيها تكون في عفاف الحب ودعارته، والجمع:خلال، وهي الخلالة (بتثليث الخاء) والخلة أيضا بالضم، وقد خاله مخالة وخلالا، وإنه لكريم الخل، والخلة(بكسرها):أي المصادقة والإخلاء، والخل(بالكسر والضم):الصَديق المختص، والجمع:أخلال، والخليل مَن أصفى المودة وأصحها.

ومادة هذه الكلمة(خ.ل.ل) أصلٌ واحدٌ يتقارب فروعه، ومرجع ذلك إما إلى دقة، أو فرجة، والباب في جميعها متقارب، فالخلال واحد الأخلة، ويقال:فلان يأكل خلله، وخلاته:أي ما يخرجه من أسنانه، فأما الخليل الذي يخاللك فمن هذا أيضا، فكأنما تخاللتما كالكساء الذي يخل.

ويقول أبو السعود:والخلة:

- من الخلال فإنه ود تخلل النفس وخالطها.
- وقيل من الخلل فإن كل واحد من الخليلين يسد خلل الآخر.
- أو من الخل:وهو الطريق في الرمل فإنهما يتوافقان في الطريقة.
- أو من الخلة:بمعنى الخصلة فإنهما يتوافقان في الخصال.[٢]

ويقول الفيروزآبادي:والخلة آخر درجات الحب، وخاتمة أقسامه العشرة التي:

أولها:العلاقة **وثانيها:**الإرادة **وثالثها:**الصبابة
ورابعها:الغرام **وخامسها:**الوداد **وسادسها:**الشغف

(١) يراجع:مختار الصحاح،مادة(ص.د.ق) ٣٥٩،والبصائر،بصيرة في(صدف،وصدق)٣/٣٠٧،ومعجم مقاييس اللغة٢/٣٦،٣٥
(٢) إرشاد العقل السليم للعلامة أبي السعود ج٢/ص٢٣٦

وسابعها:العشق **وثامنها:**التَّتَيُّم **وتاسعها:**التعبد

وعاشرها:الخلة،التي انفرد بها الخليلان إبراهيم ومحمدﷺ.[١]

قال اللهﷻعن إبراهيمعليه السلام ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتبَعَ ملة إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتخذ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[١] أيَ صفيًا، وَهو مشتَق من الخلة بمعنى المودة وَفي ذلك تشريف لإبراهيم وترغيب في اتباعه[٢]وقالﷺ(إن الله-تعالى-قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا)[٣]

رابعا:القرين

يقال:هو على قرني:أي على سني، والقرن في الناس:أهل زمان واحد، قال الشاعر:

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم وخلفت في قرن فأنت غريب

والقرْن:كفؤك، وقرن بين الحج والعمرة:جمع بينهما، وقرن الشيء بالشيء:وصله به، وبابه:ضرب ونصر، واقترن الشيء بغيره، وقارنته قرانا:صاحبته، والقرين:الصاحب، وقرينة الرجل:امرأته، يقول ابن فارس:

القاف والراء والنون أصلان صحيحان، أحدهما يدل على جمع شيء إلى شيء، والآخر شيء ينتأ بقوة وشدة، والقرينة:نفس الإنسان؛كأنهما قد تقارنا، ويقول الفيروزآبادي:

جاء القرين في القُرْآن لأربعة معانٍ:

الأول:بمعنى الشريك والمعين، كما في قولهﷻ﴿وَمَن يَكُن الشَيْطَانُ لَهُ قرينا فسَاءَ قرينا﴾[٤].وقولهﷻ﴿حَتى إِذا جَاءَنَا قال يَا لَيْت بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشرِقَيْنِ فبئسَ القرِينُ﴾[٥] أي المعين.

(١) سورة النساء:آية١٢٥
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل للكلبي ج١/ص١٥٩
(٣) أخرجه مسلم
(٤) سورة النساء آية ٣٨
(٥) سورة الزخرف ٣٨

الثاني: بمعنى الكرام الكاتبين، كما في قوله ﷻ ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾[1] وقوله ﷻ ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾[2]

الثالث: بمعنى الشياطين الموسوسين، كما في قوله ﷻ ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[3] وقوله ﷻ ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[4] أي موسوس.

الرابع: بمعنى الشياطين تحت تسخير سليمان عليه السلام مقيدين، كما في قوله ﷻ ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾[5][6].

أنواع الصُّحْبَة

الصُّحْبَة نوعان:

- **صحبة الأخيار.**
- **صحبة الأشرار.**

ومن أنواع الصُّحْبَة:

- **صحبة الحياة الدنيا:** كصحبة الأنبياء، وصحبة الوالدين، وصحبة الزوجة والأبناء، وصحبة طالب العلم لأستاذه، وصحبة الزملاء...وصحبة أهل الفساد والشرور من كفار ومنافقين..الخ.
- **صحبة الآخرة:** وهي صحبة أهل الجنة، وأصحاب الأعراف، وصحبة أهل النار.

ومن أنواع الصُّحْبَة:

- **الصُّحْبَة الاضطرارية:** وهي ما يقع بالاتفاق، ومنها صحبة الوالدين، والأقربين عموما، والصحبة بسبب الجوار أو بسبب

---

(١) سورة ق آية ٢٧
(٢) سورة ق آية ٢٣
(٣) سورة فصلت آية ٢٥
(٤) سورة الزخرف آية ٣٦
(٥) سورة ص آية ٣٨
(٦) بصائر ذوي التمييز، بصيرة في (ق.ر.ن) ٢٦١/٤، معجم مقاييس اللغة ٣٩٤،٣٩٥/٢، ومختار الصحاح ٥٣٢،٥٣٣

الاجتماع في المكتب أو في المدرسة أو في السوق..الخ.

- **الصُّحْبَة الاختيارية:** بمعنى أن الإنسان هو صاحب القرار في تحقيقها، وهو المسئول عنها، وعن عواقبها، ومنها صحبة الصديق، والزوج والزوجة غالبا.

وليس معنى كون الصُّحْبَة اختيارية أنها تخرج عن قدر الله ﷻ -معاذ الله- وإنما المقصود أنها مسئوليته، وعليه عواقبها؛ إذ قد يختار صُحبة على أساس مرضي، ثم ما تلبث أن تتغير أحواله كنوع من الامتحان والابتلاء.

وقد غفل عن إدراك مثل هذه التفرقة قوم من الضالين؛ فألبس عليهم؛ وبنوا على هذا بعض الأفهام والآراء الخاطئة، إذ يقول بعض هؤلاء: إن ذكر صحبة أبي بكر رضي الله عنه للنبي ﷺ في الغار لا مزية له فيها -على زعمهم- ولا فضل؛ وأن هذه الصُّحبَة المباركة لا تعد منزلة كريمة له رضي الله عنه؛ إذ الصُّحبَة قد وردت في القرآن غير مرة لا على أنها محل ثناء أو مكرمة، وإنما على كونها مجرد ملازمة بين اثنين من الناس، وهذا كصاحب الجنتين في سورة الكهف، وكصاحبي السجن في سورة يوسف عليه السلام.

والحق ما قلناه من أن الصُّحْبَة قد تكون اختيارية وقد تكون اضطرارية، وأن الصُّحْبَة الاختيارية المسئولة حين يحسن صاحبها الاختيار؛ فيصحب الأخيار، ويهجر الأشرار، يعد هذا الاختيار فضيلة، فما بالنا حين تكون الصُّحْبَة المختارة لأفضل خلق الله قاطبة، وفي وقت عاداه فيه قومه وكذبوه، وما بالنا حين تكون هذه الصُّحْبَة إخلاصا لله، ومحبة لدينه ولرسوله! ألا تعد فضيلة ومكرمة ومزية تظل تذكر ما دام ذلك الكتاب محفوظا بحفظ الله! وما دام هناك مؤمنون حقا يتلون آيات الله آناء الليل وأطراف النهار، ويتدبرونه ويفهمونه على المنهج الصحيح للأئمة الصالحين، لا وفق أهواء مريضة، ووساوس خبيثة!

والأصل أنه لا تكون ثمة صداقة بين الأخيار والأشرار، لكن قد تكون صحبة؛ إذ الصُّحْبَة -كما تقدم- أعم من الصداقة، فقد يبتلى الإنسان بصحبة من جوار، أو زمالة عمل، أو رفقة سفر، بل قد تكون أكثر ملازمة من هذا؛ كصحبة زوج، كما ابتلي نوح ولوط، كل واحد منهما بزوجة لم تكن

من الأخيار، وابتليت امرأة فرعون به، والحاصل أن الصُّحْبَة-لا سيما غير الاختيارية-قد يقع فيها من عدم التناسب ما يعد ابتلاء.

ومن أنواع الصُّحْبَة:

- **صحبة دائمة**:والمراد بها الصُّحْبَة بين أفراد يجمعهم مكان واحد من بلد، أو بيت، أو نحوه غير مؤقتة بزمن، كصحبة الأهل في البيت، وصحبة الجيران، وأصحاب العمل الواحد، وكصحبة أهل البلد الواحد...الخ، ويدخل فيها بصورة عامة الصُّحْبَة الدنيوية والصحبة الأخروية؛من حيث إن كلا منهما صحبة مكان دائمة.
- **صحبة مؤقتة**:والمراد بها الصُّحْبَة بين أفراد يجمعهم مكان واحد لزمن مؤقت، كصحبة سفر مثل أصحاب السفينة، وصحبة دراسة، وأصحاب الأعمال المؤقتة، وكصحبة السجن كصاحبي يوسف عليه السلام..الخ.

مجال الصُّحْبَة

تتعدد مجالات الصُّحْبَة، فتشمل:

- صحبة الوالدين
- صحبة الأقرباء من الإخوة والأخوات وذوي الأرحام والأصهار
- صحبة الجيران
- صحبة الزوجة والأبناء
- صحبة الزملاء في العمل أو الدراسة أو غيرهما
- صحبة رفقاء السفر

وبعد:

فالذي يعنينا من هذه التقسيمات جميعها هو ذلك التقسيم الذي مجاله الخير والشر، والدنيا والآخرة؛ذلك أن التقسيمات الأخرى المتكاثرة، ما ذكر منها وما لم يذكر متضمنة فيه من جهة، ومن جهة أخرى فهذا التقسيم هو محل العناية والاهتمام لما يترتب عليه من الفوائد والمطالب، وعلى هذا فإن الصُّحْبَة تنقسم إلى قسمين:

أولاً:صحبة الدنيا

وفي هذه الحياة تكون الصُّحْبَة بين الناس بحسب الصلاح والفساد، الإيمان والكفر، فالصحبة في الدنيا إذن صحبتان:

- **صحبة الأخيار**:حيث يتعاونون على البر والتقوى، ويتناصحون في الله ﷻ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.
- **وصحبة الأشرار**:حيث يتجمعون على الشر، ويحرض بعضهم بعضا على الفساد﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾

الصُّحْبَة في الحياة الدنيا هي صحبة بين الأخيار، وصحبة بين الأشرار، كل على شاكلته؛حيث تتعارف الأرواح الطيبة فتتناسب وتتآلف، وتختلف عن الأرواح الشريرة الخبيثة فتتباعد عنها وتتنافر.

وقد قرن الله ﷻ كل صاحب بما يلائمه ويناسبه، فجعل الملائكة أولياء للصالحين المهتدين؛حيث يناسبونهم ويلائمونهم؛ كما في قوله ﷻ ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾وفي المقابل جعل الشياطين قرناء للعصاة الذين آثروا الضلال(١)، قيَّضهم في الدنيا من يسولونه ويزينونه لهم، كما في قوله ﷻ ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾(٢) وقوله﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ

(١) الكشاف للزمخشري ج٤/ص٢٠٤ بتصرف يسير
(٢) سورة الزخرف:الآيات٣٦ :٣٩

مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [١] وقوله﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [٢]

ومعنى﴿قَيَّضْنَا﴾أي سلطنا ووكلنا أو هيأنا وسببنا أو قدرنا، ونحو ذلك، فإن جميع تلك العبارات راجع إلى شيء واحد، وهو أن الله ﷻ هيأ للكافرين قرناء من الشياطين يضلونهم عن الهدى ويزينون لهم الكفر والمعاصي وقدرهم عليهم، وأنهم مع إضلالهم لهم يظنون أنهم مهتدون، فهم يحسبون أشد الضلال أحسن الهدى كما قال ﷻ عنهم﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾وقال ﷻ ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [٣] وبين ﷻ أنهم بسبب ذلك الظن الفاسد هم أخسر الناس أعمالا في قوله ﷻ ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [٤] وقوله ﷻ ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾من قولهم عشا بالفتح عن الشيء يعشو بالضم إذا ضعف بصره عن إدراكه؛لأن الكافر أعمى القلب؛فبصيرته تضعف عن الاستنارة بذكر الرحمن؛وبسبب ذلك يقيض الله له قرناء الشياطين، ويوم القيامة يتمنى هذا الكافر أن يكون بينه وبين قرينه من الشياطين بعد عظيم.

وترتيب قوله﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾على قوله﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ترتيب الجزاء على الشرط، يدل على أن سبب تقييضه له هو غفلته عن ذكر الرحمن، ونظير ذلك قوله ﷻ ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [٥] لأن الوسواس هو كثير الوسوسة ليضل بها الناس، والخناس هو كثير التأخر والرجوع عن إضلال الناس، فهو وسواس عند الغفلة عن ذكر الرحمن، خناس عند ذكر الرحمن، كما دلت عليه آية الزخرف المذكورة، وكقوله ﷻ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى

(١) سورة فصلت:الآية٢٥
(٢) سورة النساء:الآية ٣٨
(٣) سورة الأعراف:الآية ٣٠
(٤) سورة الكهف:الآيتان ١٠٤،١٠٣
(٥) سورة الناس:الآيات٦:٤

الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [١] ويدل عليه كذلك قوله ﷻ ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [٢] لأن الذين يتولونه والذين هم به مشركون غافلون عن ذكر الرحمن وبسبب ذلك قيضه الله لهم فأضلهم، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله ﷻ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ﴾ [٣] أي استكثرتم من إضلال الإنس في دار الدنيا، كقوله﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [٤] [٥]

ومن اللطائف في آية فصلت أنه ﷻ لم يقل:وقيضنا لهم قرناء (ليزينوا) لهم وإنما قال:﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ﴾فهو ﷻ قيض القرناء لهم بمعنى أنه ﷻ أخرج كل أحد إلى آخر من جنسه؛فقيض أحد الزوجين للآخر والغني للفقير والفقير للغني، ثم بين ﷻ أن بعضهم يزين المعاصي للبعض. [٦]

ثانياً:صحبة الآخرة

- **صحبة الأخيار**(أصحاب الجنة):
- **صحبة الأشرار**(أصحاب النار).

ولا شك أن صحبة الأخيار في الدنيا سوف تبقى، وتتواصل، وتمتد إلى الآخرة، ويبلغ الأمر أن يكون للصديق الصالح أن يشفع الصديق في صديقه، ويكون سبباً في نجاته ودخوله الجنة، أو في رفعة درجته، كما كان نافعا مفيدا له في الدنيا بالنصيحة، والوعظ، والكلمة الطيبة، وهذه الصُّحْبَة الطيبة هي التي تذكر في القرآن الكريم كثيرا، حيث التعبير عن هؤلاء الفائزين بالجنان، والمتلازمين في صحبة مباركة بأنهم أصحاب اليمين، أو أصحاب الميمنة، أو أصْحَابُ الجَنَّة.

أما صحبة الأشرار، فإنها تنتهي، ويتبرأ الأصحاب بعضهم من بعض، ويصرخون نادمين على تلك الصُّحْبَة التي امتدت مساوئها وأضرارها من الدنيا إلى الآخرة؛قال ابن

(١) سورة مريم:آية ٨٣
(٢) سورة النحل:الآيتان ١٠٠،٩٩
(٣) سورة الأنعام:الآية ١٢٨
(٤) سورة الأعراف:الآية ٢٠٢
(٥) أضواء البيان للشنقيطي ج٧/ص٢٦،٢٧
(٦) التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٧/ص١٠٣

قيم:وأهل المعاصي والفسوق وإن كان بينهم نوع مودة وتحابي فإنها تنقلب عداوة وبغضا وفي الغالب يتعجل لهم ذلك في الدنيا قبل الآخرة وأما في الآخرة فـ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾كما قال سبحانه﴿إنَّ ذلكَ لحَقّ تخاصُمُ أهْلِ النارِ﴾(١) وقال إمام الحنفاء لقومه:﴿ إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا وما لكم من ناصرين﴾فالمعاصي كلها توجب ذلك.(٢)

فهذه الصُّحْبَة البائسة التعيسة كما كانت في الدُّنيا على الشر؛تكون في الآخرة ندما وتحسرا، حيث يتبادلون الاتهامات في نار جهنم، ويتبرأ بعضهم من بعض، ولن يبقى من أثر لتلك الصُّحْبَة في الآخرة غير تجمعهم في نار جهنم، حيث يكونون هم﴿أصْحَاب الجَحِيمِ﴾وهم﴿أصْحَاب النارِ هُمْ فيهَا خالدُونَ﴾وهذا التجمع لن يكون ذا وقع مفيد أو أثر نافع؛فلن يحمل أحد عن أحد، ولن يخفف بعضهم عن بعض﴿ولَن ينفعَكُمُ اليَوْمَ إذ ظلَمْتُمْ أنكمْ فِي العَذابِ مُشتركونَ﴾

أجل، إن أصحاب الدنيا هم أصحاب الآخرة، أخيارا كانوا أو أشرارا، يتمازجون في الآخرة كما تمازجوا في الدنيا، ولسوف تبقى هذه الصُّحْبَة التي كانت في الدنيا على نحو من الأنحاء، وكما كانت في الدنيا صحبة أخيار وصحبة أشرار، فسوف تكون كذلك في الآخرة؛فالدنيا مزرعة الآخرة وقنطرة إليها.

وقد ذكر الله ﷻ أهل الجنة وأهل النار في القُرْآن الكَرِيم، بأوصاف وألقاب عديدة، وكل وصف أو لقب منها فإنما أطلق مناسبا لحالة من الحالات..

فأطلق على أهل الجنة:

= أصحاب الجنة:هكذا يسمون، وبهذا اللقب يشتهرون؛وهو إطلاق يشير إلى أن الجنة صارت ملكا لهم فهم أصحابها والوارثون لها، كما قال﴿ أولَئكَ هُمُ الوَارِثونَ الذينَ يَرِثونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فيهَا خالدُونَ﴾

(١) سورة ص:آية٦٤
(٢) إغاثة اللهفان ٢/ ١٥٥

= أصحاب اليمين:قال بعض العلماء:قيل لهم أصحاب اليمين:

- لأنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم.
- أو لأنهم يذهب بهم ذات اليمين إلى الجنة.
- أو لأنهم عن يمين أبيهم آدم كما رآهم النبي ﷺ كذلك ليلة الإسراء.
- أو لأنهم ميامين أي مباركون على أنفسهم؛لأنهم أطاعوا ربهم فدخلوا الجنة، واليمن:البركة.(١)

أو ليس في طليعة هؤلاء النبي وأصحابه وأتباعه في كل زمان، أو ليس هؤلاء هم أصحاب الصراط السوي، أو ليس من هؤلاء هم أصحاب الكهف والرقيم؟

أو ليس في طليعة هؤلاء النبيون والصديقون والشهداء والصالحون﴿وحَسُنَ أولَئكَ رَفِيقا﴾؟

أو ليس من هؤلاء أتباع الأنبياء في كل زمان، من أبناء آدم الصالحين، وأصحاب السفينة أتباع نوح الذين نجاهم الله في الدنيا كما أن لهم النجاة والفوز في الآخرة﴿فأنجَيْنَاهُ وأصْحَاب السَّفِينةِ وجَعَلْنَاهَا آيَةً للعَالمِينَ﴾؟

كانوا في الدنيا أصحابا على الخير، وسوف يلتقون هناك في الآخرة في صحبة من جنس أعمالهم؛فيصيرون هم هم أصحاب الجنة، وأصحاب اليمين وأصحاب الميمنة.

وأطلق على أهل النار أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة، قيل:

- لأنهم يؤتون كتبهم بشمائلهم.
- أو لأنهم يذهب بهم ذات الشمال إلى النار.
- أو لأن العرب تسمي الشمال شؤما كما تسمي اليمين يمينا ومن هنا قيل لهم أصحاب المشأمة؛فلأنهم مشائيم على أنفسهم فعصوا الله فأدخلهم النار والمشائيم ضد الميامين.(٢)

(١) أضواء البيان للشنقيطي ج٧/ص٥١٣
(٢) المرجع السابق ج٧/ص٥١٣

=أو ليس من هؤلاء أصحاب الأيكة أصحاب مدين، وأصحاب الرس، وأصحاب الحجر، وأصحاب الفيل، قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط؟

=أو ليس من هؤلاء﴿أَصْحَابُ الأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾؟

=أو ليس من هؤلاء أصحاب القرية﴿إِذْ جَاءَهَا المُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾؟

=أو ليس من هؤلاء أصحاب السَّبت المعاندين المخالفين؟

كانوا في الدنيا أصحاباً على الشر، وسوف يلتقون هناك في الآخرة في صحبة من جنس أعمالهم؛فيصيرون هم هم أصحاب النار، وأصحاب الجحيم وأصحاب الشمال وأصحاب المشأمة، وكما كانوا قد اجتمعوا في الدنيا على حرب الله ورسوله والمؤمنين يجمعهم الله ﷻ يوم القيامة في النار، ولن يفيدهم هذا التجمع الذي أفادهم الكثرة والقوة والغلبة - ربما - في الدنيا، وإذا كان قد ضحك كثيرا، وتحققت له السعادة والنشوة بمعونة أصحاب الشر على تحقيق الظلم وإلحاق الأذى بالصالحين؛فإن هذا الصاحب نفسه سيكون مصدر إزعاج وحسرة، وذكرى بئيسة أليمة حين يراه يوم القيامة، سوف يتبرأ منه، ويتمنى أن لو كان قد لقيه أو رآه من قبل﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ القَرِينُ﴾(١) سوف يندم ولكن ليت ساعة مندم؛فليس ينفعه ندمه على تلك الصُّحْبَة المشئومة، وملء جرته عليه من ويلات وثبور﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ اليَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾(٢)

حديث القُرْآن عن نوعي الصُّحْبَة

وقد أشار القُرْآن الكريم إلى هذين النوعين من الصُّحْبَة في سورة الفرقان في قوله ﷻ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾(٣) فهذه الآية تكشف عن حال الظالم، وتبين أنه يندم يوم القيامة على صحبة

(١) سورة الزخرف:آية٣٨
(٢) سورة الزخرف:آية٣٩
(٣) سورة الفرقان:الآيات ٢٧:٢٩

الأشرار، ويتمنى لو كان قد صحب الأخيار، لا سيما قدوة الخير الأول، وصحبته، إما على الحقيقة، وإما أن يكون المقصود ملازمة طريقته وسنته، ومرافقة أتباعه، ولعل هذه الآيات الكريمة من أدل وأوضح الآيات القرآنية في بيان نوعي الصُّحْبَة.

قال الراغب:

قوله﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً " تنبيها أن كل إنسان يندم على من خالّه وصاحبه في تحري باطل، فيقول:ليتني لم أخاله وذلك إشارة إلى ما قال في قوله﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المُتَّقِينَ﴾.(١)

وقال الزمخشريّ:نزلت في عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس وكان يكثر مجالسة رسول اللهﷺوقيل اتخذ ضيافة فدعا إليها رسول اللهﷺفأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل وكان أبي بن خلف صديقه فعاتبه وقال:صبأت يا عقبة قال:لا ولكن ألى أن لا يأكل من طعامي وهو في بيتي فاستحييت منه فشهدت له والشهادة ليست في نفسي فقال:وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمدا فلم تطأ قفاه وتبزق في وجهه وتلطم عينه فوجده ساجدا في دار الندوة ففعل ذلك فقال النبيﷺلا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فقتل يوم بدر أمر عليا﷝بقتله وقيل قتله عاصم بن ثابت بن أفلح الأنصاري وقال:يا محمد إلى من الصبية قال:إلى النار وطعن رسول اللهﷺأبيا بأحد فرجع إلى مكة فمات .. وفيها أنه سوف يندم ويتمنى أن لو صحب الرسول وسلك معه طريقا واحدا وهو طريق الحق ولم يتشعب به طرق الضلالة والهوى أو أراد أني كنت ضالا لم يكن لي سبيل قط فليتني حصلت بنفسي في صحبة الرسول سبيلا.(٢)

وفي هذه الآية لطيفة؛حيث كنى الله ﷻ عن هذا النادم المتحسر بقوله"فلانا" ولم يذكر اسمه، وقد ذكر المفسرون لهذا حكمة:

فقيل:لعل هذا لحقارته

وقيل:إنما لم يذكر اسمه لأنه دخل فيه جميع الظالمين؛لأن من

(١) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ج١/ص٣٨٦
(٢) الكشاف للزمخشري ج٣/ص٢٨١

صنع مثل هذا الصنع يكون هذا جزاؤه.(١)

ولا مانع أن يكون هذا وذاك مراداً، وقد يكون لحكمة -فوق ما ذكر -أبلغ وأعظم"فلله الحجة البالغة".

كما أفاد قوله ﷻ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذ بَعْضُهُمْ لِبَعْض عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢) الإفادة نفسها، وهي أن الصُّحْبَة نوعان؛حيث إن الآية بيّنت أن الصُّحْبَة لا تنفع في الآخرة، بل يكون الأصْحَاب هناك أعداء ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذ بَعْضُهُمْ لِبَعْض عَدُوٌّ﴾ ثم استثنت الآية نوعا آخر من الصُّحْبَة يفيد وينفع، نوعا آخر من الأصحاب لا يكونون أعداء في قوله ﷻ﴿إِلا الْمُتَّقِينَ﴾ وقد تقدم أن تلك الآية قد تضمنت ما يفيد إثبات الشفاعة بين الصُّحْبَة المؤمنة؛حيث حكى الله ﷻ عن الكفار أنهم خصصوا أنفسهم بنفي الشفعاء والأنصار حيث قالوا:﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ .(٣)

كما أشارت السنة النبوية إلى هذين النوعين، فورد ذكر الصُّحْبَة بنوعيها في قوله ﷺ (مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه أو تجد ريحه وكير الحداد يحرق بدنك أو ثوبك أو تجد منه ريحا خبيثة).(٤)

وبهذا يظهر لنا أن الصحبة تنحصر أنواعها في نوعين اثنين، هما:صحبة الأخيار بعضهم لبعض في الدنيا والآخرة، وصحبة الأشرار كذلك في الدنيا والآخرة.

أهمية الصُّحْبَة ومدى الحاجة إليها

يقول الله ﷻ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَر وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبا وَقَبَائِل لِتَعَارَفُوا..﴾ يبين الله جل وعلا في تلك الآية الكريمة أن الحكمة في جعله بني آدم شعوبا وقبائل هي التعارف فيما بينهم(٥) فالتعارف والمعاشرة مع الآخرين دعوة

(١) بحر العلوم للسمرقندي ج٢/ص٥٣٦
(٢) سورة الزخرف:الآية ٦٧
(٣) وينظر التفسير الكبير للفخر الرازي ج٩ ص١١٧
(٤) متفق عليه
(٥) أضواء البيان للشنقيطي٣/٤٥

ربانية، وهي في الوقت نفسه فطرة بشرية؛إذ إن الإنسان مدنيٌّ بطبعه-كما يقول علماء الاجتماع-طبع على الرغبة في التعارف والمخالطة والمعاشرة؛ولذلك فهو لا يقدر على حياة الانعزال، بل إن الإنسان المصاب بالعزلة والميل إليها يعد مريضا.

والصَّداقة نوْعٌ من هذه العلاقات الاجتماعية الحميمة، هي معنى نبيل، ورابطة حميدة، ولا شك أن الإنسان يحتاج إلى الصديق كحاجته إلى الأب والأخ والابن، مع التفاوت بين هذه الدرجات؛بل إن الإنسان يشعر-أحيانا-بحاجته إلى صديق، لا إلى أخ شقيق، وقد يفضي الإنسان إلى صديق له بأشياء لا يُحب أن يُطلع عليها غيرَه ولو كان من الأقرباء، ولعله من الوارد بل والواقع كثيرا ألا يكون للإنسان أخ، لكن من غير المقبول أو المعقول ألا يكون له صديق ودود؛فالصَّداقة علاقة اجتماعية هامة، شأنها شأن كثير من العلاقات التي لا غناء للإنسان عنها.

ومما ورد في بيان أهمية الصديق، بل هو كذلك مما يؤكد مبلغ الحاجة إلى هذه العلاقة الحميمة وعدم الاستغناء عنها ما قصه الله ﷻ عن المجرمين في الآخرة في قوله ﷻ ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾

يقول ابن عطية:في هذه اللفظة منبهة على محل الصديق من المرء.(١)

ويقول علي بن أبي طالب ﷺ في هذا الشأن:الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين.

ولله در القائل:

وما المرء إلا بإخوانه كما يقبض الكف بالمعصم
ولا خير في الكف مقطوعة ولا خير في الساعد الأجذم

والحق أن الإنسان لا يخلو حاله من أوقات شدة، أو ظروف صعبة، أو مواقف عسيرة، وهو في كل حالة من هذه الحالات لا يمكنه أن يستغني عن إنسان:

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية٤/٢٣٦

= يقف معه وقت الشدة

= يساعده حين يحتاج لمساعدة

= يستشيره إذا عنَّ له أمر واحتاج إلى مشورة

= يرجو وقفته في الأزمات والملمات

= يكون معواناً له على الخير

= يؤنس وحشته في الغربة، ورد عن علقمة أنه لما قدم الشام غريبا دعا:اللهم يسر لي جليسا صالحا.

وليس ما ذكر هو -فحسب -الذي يبيِّن أهمية الصَّداقة ويبرز مدى الحاجة إليها، بل إن ما ورد في بيان فضل الصُّحْبَة وفي بيان حقوق كل من الصاحبين على الآخر ما يصح أن يضاف إلى هذا الباب؛لولا أن هذا وذاك يأتي في موضعه المخصص له، ويكفينا التنبيه على هذا.

فضَائل صُحبة الأخيَار

ينبغي أن يُعلِم أن الألفة بين الناس محض تفضُّل وعطاء، ونعمة ومنة من الله ﷻليس لأحد فضل فيها ولا مدخل في تحقيقها؛فهي لا تكتسب بمهارة، ولا تتحقق بذكاء، ولا تستجلب بمال أو عطاء، ولا تتحصل بتكلف أو نحوه، من تودد أو تعرض للأسباب التي يكتسب الناس بها مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف أو غير ذلك، بل هي مودة يحدثها الله ﷻفي القلوب، ويزرعها فيها ابتداء؛تخصيصا لأوليائه بهذه الكرامة كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب والهيبة إعظاما لهم وإجلالا لمكانهم، قال الله ﷻمظهرا عظيم منته على الخلق بنعمة الألفة ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾(١) فقد أخبر الله ﷻنبيه ﷺأنه هو الذي هداهم لهذه النعمة ومنّ عليهم بها، فقال:﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾(٢) أي بالألفة، فالصديق

(١) الأنفال:من الآية٦٣

(٢) سورة آل عمران:آية ١٠٣

كالأخ؛بل هو أخٌ؛ولذلك قيل:رب أخٍ لك لم تلده أمك، والأخ من خير أعوان الإنسان وأخلصهم، ولله در القائل:

أخَاك أخَاك إن من لا أخ له كساعٍ إلى الهيجا بغير سَلاح

ومن أهم فضائل صحبة الأخيار ما يأتي:

- **هي علامة من علامات الإيمان:**

وكما ورد في الحديث عن أبي سعيد الخدري ﷺعن النبي ﷺ قال:(إذا رأيتم الرَّجُل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان فإن الله يقول﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾(١) فقد ورد"عن جابر ﷺقال:قال رسولَ الله ﷺالمؤمن إلف مألوف.."(٢) فمن علامات الإيمان أن يَألف الإنسانُ ويُؤلف، فوجودها إذن دليل وعلامة من علامات الإيمان وحصوله.

- **هي دليل خيرية الإنسان:**

ففي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺقال:(إن المؤمن يألف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف)(٣)

- **هي سبب من أسباب زيادة الإيمان:**

إذ إن الصُّحْبَة وسيلة لتواصل الأصحاب وتعاونهم على البر والتقوى والأعمال الصالحة، فهي إذن باب من أبواب زيادة الإيمان.

كما أن الصحبة اتصال وتآلف مع الناس، وقد ورد أن المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي يعتزل الناس، فعن النبي ﷺأنه قال:"المسلم إذا كان مخالطا الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم"(٤) وفي رواية"المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على

(١) سنن الدارمي١/ ٣٠٢،سنن ابن ماجة١/ ٢٦٣،والآية الواردة في الحديث من سورة التوبة رقم(١٨)

(٢) مسند الشهاب١/ ١٠٨

(٣) أخرجه الحاكم في النستدرك١/ ٧٣،قال الحاكم :هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولا أعلم له علة ولم يخرجاه،وقال محقق الكتاب مصطفى عبدالقادر عطا:قال الذهبي في التلخيص:علته انقطاعه.

(٤) سنن الترمذي ٤/ ٦٦٢

أذاهم"[١] وفي رواية(أكمل الناس إيمانا أحاسنهم أخلاقاً المُوَطَّئُونَ أكنافاً الذين يألفون ويُؤلفون ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[٢]

- وهي سبب من أسباب العصمة:

وهذا إذا أحسن الإنسان اختيار صاحبه، وكان على أساس من الدين والخلق؛فإنه يستحي أن يجاهر بالمعصية أمامه؛فضلا عن أن يفاخر بها؛ولذلك قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: ما أوقعني في بلية إلا صُحْبَةَ من لا أحتشمه.

وجاء في الحديث(..من أحب الجنة فعليه بالجماعة فإن الشيطان من الواحد قريب ومن الاثنين أبعد)[٣]وفي رواية(إن تفرقكم هذا من الشيطان)[٤].

- الصُحْبَة نفسها من أفضل ما يستفاد من الطاعات والقربات:

إذ الأخوة في الله ﷻ عمل صالح، فهي حب في الله، وقد ورد(ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان منها-وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله) وورد أن لقمان قال لابنه:يا بنيّ، لا تعُدَّ بعد تقوى الله من أن تتخذ صاحبا صالحا، وسئل بعض الحكماء:أي الكنوز خير؟ قال:أما بعد تقوى الله فالأخ الصالح.[٥]

(١) سنن ابن ماجة ٢/ ١٣٣٨
(٢) المعجم الصغير ١/ ٣٦٢
(٣) السنن الكبرى للنسائي ٥/ ٣٨٩
(٤) أخرجه أبو داود في السنن ٣/ ٤١ وصححه الشيخ الألباني،أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ١٢٦ وقال:هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه،وقال الذهبي:صحيح،وأخرجه ابن حبان في صحيحه ٦/ ٤٠٨ عن أبي ثعلبة الخشني قال:كان الناس إذا نزلوا منزلا تفرقوا في الشعاب والأودية فقال رسول الله ﷺ(إن تفرقكم في هذه الشعاب والأودية إنما ذلكم من الشيطان) قال:فلم ينزلوا بعد منزلا إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى لو بسط عليهم ثوب لعمهم.
(٥) الإخوان:ص١١٢،٧٣

- وهي سبب في محبة الله ﷻ للعبد:

فقد ورد عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى، قال:فأرصد الله له على مدرجته ملكا فلما أتى عليه قال:أين تريد؟ قال:أريد أخا لي في هذه القرية. فقال له:هل له عليك من نعمة تربها؟ قال:لا؛غير أني أحبه في الله. قال:فإني رسول الله إليك إن الله ﷻ قد أحبك كما أحببته فيه"[١] فالحب في الله عمل وطاعة تستوجب محبة الله ﷻ.

- وهي سبب من أسباب الشفاعة:

وقد وردت الإشارة إلى هذا المعنى في آيات عدَّة، منها قوله ﷻ ﴿وأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ (٢) وقوله ﷻ ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾(٣) وقوله﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (٤) وقوله﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾(٥)

هذه الآيات تتحدث عن الكافرين، أصحاب الشمال، وقد عددت كثيرا من جرائمهم، ثم أعقبت هذا بذكر العقوبة؛كأنه قال:فلذلك استحقوا ما استحقوا، وقوله جل شأنه﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ..﴾ أي ليس له قريب ولا صاحب ولا صديق يشفع له لينجو من عذاب الله أو يفوز بثوابه، فالمقصود بالحميم الصديق اللطيف المودة كما قاله الجمهور(٦) وتصدير هذه العقوبة بالفاء الرابطة﴿فَلَيْسَ﴾يشير إلى أن ما ذكر من جرائم وخطايا هو سبب لاستحقاقهم هذه العقوبات، وأن هذه العقوبات جزاء لما اقترفوه من جرائم، والشاهد في الآية الكريمة أنّ نفي الحميم مترتب على

(١) صحيح ابن حبان ٢/ ٣٣١
(٢) سورة الحاقة٢٥ :٣٧
(٣) سورة غافر،آية:١٨
(٤) سورة المدثر،آية:٤٨
(٥) سورة الشعراء :الآيتان١٠٠،١٠١
(٦) كما حكاه الثعالبي في تفسيره الجواهر الحسان:ج٤/ص٣٣٦

اقتراف الجرائم والخطايا، ومعنى هذا أن غيره ممن لم يفعل هذه الجرائم والخطايا ليس مثله؛فيكون له حميم بخلافِ الآخر؛ويؤكد هذا المعنى قوله ﷻ ﴿مَا للظالمينَ منْ حَميم وَلا شفيعٍ يُطاعُ﴾ إذ خصِ الظالمين بانتفاء الشفاعَة عنهم، وكذلك قوله﴿فَمَا تَنفعُهُمْ شفاعَة الشافعينَ﴾.

قال صاحب أضواء البيان:قوله ﷻ ﴿فَمَا تَنفعُهُمْ شَفَاعَةُ الشافعينَ﴾فيه أن الكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين؛كما أن فيها إثباتَ الشفاعة للشافعين، ومفهوم كونها لا تنفع الكفار أنها تنفع غيرهم(١) ولذلك أورد ابن كثير في تفسيره للآيات عن قتادة قوله:"يعلمون والله إن الصديق إذا كان صالحا نفع وأن الحميم إذا كان صالحا شفع"(٢)وكذلك أورد السمعاني في تفسيره للآيات والنحاس في معاني القرآن عن الحسن البصري أنه قال:استكثروا من أصدقاء المؤمنين فإن لهم شفاعة عند الله ﷻ(وعند النحاس بلفظ:فإن الرجل منهم يشفع في قريبهِ وصديقه فإذا رأى الكفار ذلك قالوا:﴿ فمَا لنا من شافعينَ وَلا صَديقٍ حَميم﴾(٣)

وقال ابن عطية:قصَّ الله ﷻ في هذه الآية عن الكافرين قولهم على جهة التلهف والتأسف حين رأوا شفاعة الملائكة والأنبياء والعلماء نافعة في أهل الإيمان عموما وشفاعة الصديق في صديقه خاصة﴿فمَا لنا من شافعينَ وَلا صَديقٍ حَميم﴾ (٤) حيث يتبرأ بعضهم من بعض، ويَنقطع ما كانَ بينهم من مودات وصلات، كما في قوله ﷻ ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾قال المفسرون:يعني الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا، وقال ابن عباس وأصحابه:يعني أسباب المودة الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا.

وقد اختلف المفسرون في مفاد قوله ﷻ ﴿يطاع﴾:

- فقيل:لا مفهوم للوصف؛إذ لا شفيع لهم أصلا، كما جاء في قوله"فما لنا من شافعين"

قال الزركشيّ:ليس المراد نفي الشفيع بقيد الطاعة، بل نفيه

(١) أضواء البيان للشنقيطي ج٨/ص٣٦٧
(٢) تفسير ابن كثير ج٣/ص٣٤١
(٣) تفسير السمعاني ج٥/ص١٣،معاني القرآن - النحاس ج٦/ص٢١٢
(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ج٤/ص٢٣٦

مطلقا؛وإنما قيَّده بذلك لوجوه منها:أنه تتكيل بالكفار؛لأن أحدا لا يشفع إلا بإذنه وإذا شفع يشفع لكن الشفاعة مختصة بالمؤمنين فكان نفى الشفيع المطاع تنبيها على حصوله لأضدادهم كقولك لمن يناظر شخصا ذا صديق نافع لقد حدثت صديقا نافعا وإنما تريد التنويه بما حصل لغيره لأن له صديقا ولم ينفع.

- وقيل:له مفهوم؛وهذا بناء على زعمهم أن لهم شفعاء، أي لو شفعوا فرضا لم يقبلوا.(١)

وقال بعض السلف:استكثروا من الإخوان ؛فإن لكل مؤمن شفاعة ؛فلعلك تدخل في شفاعة أخيك،,وروى في غريب التفسير في قوله ﷻ ﴿ويَستجيبُ الذينَ آمَنوا وعَملوا الصَّالحَات ويَزيدُهُم منْ فضْله﴾(٢) قال:يشفعهم في إخوانهم فيدخلهم الجنة معهم، ويقال:إذا غَفر الله للعبد شفع في إخوانه ؛ولذلك حث جماعة من السلف على الصُّحْبَة والألفة والمخالطة، وكرهوا العزلة والانفراد، قال علي ﷺ:عليكم بالإخوان؛فإنهم عِدة في الدنيا والآخرة، ألا تسمع إلى قول أهل النار ﴿فمَا لنا من شافعينَ وَلا صَديقٍ حَميم﴾قال الفخر:وذلك لأن المعذبَ لا يخلصه من العذابِ إلا صديق يشفع له أو ناصر يدفع عنه ولا ولي لهم يشفع ولا نصير يدفع، كما في قوله﴿لا يجدون وليا ولا نصيرا﴾.(٣)

فقد تبين من هذه الآيات العديدة ما يفيد إثبات الشفاعة بين الصُّحْبَة المؤمنة؛حيث إنه ﷻ حكى عن الكفار أنهم خصصوا أنفسهم بنفي الشفعاء والأنصار حيث قالوا:﴿ فمَا لنا من شافعينَ وَلا صَديقٍ حَميم﴾ (٤)والله أعلم.

- وهي سبب من أسباب دخول الجنة:

فقد تقدم في الحديث(فمن أحب الجنة فعليه بالجماعة)(٥) وعن أنس قال:بينما النبي ﷺجالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه

(١) تفسير الجلالين ج١/ص٦٢٠،البرهان في علوم القرآن للزركشي ج٣/ص٣٩٧،تفسير السعدي ج١/ص ٨٨٤،٧٣٥
(٢) سورة الشورى :آية٢٦
(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٥/ص٢٠٠
(٤) التفسير الكبير للفخر الرازي ج٩ ص١١٧
(٥) السنن الكبرى للنسائي٥/ ٣٨٩

فقال عمر:ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال:رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة ﷻ فقال أحدهما:يا رب خذ لي مظلمتي من أخي قال الله ﷻ:أعط أخاك مظلمته فيقول:يا رب لم يبق من حسناتي شيء قال:يا رب فليحمل عني من أوزاري ففاضت عين النبي ﷺ بالبكاء ثم قال:إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس فيه إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال:فيقول الله ﷻ للمطالب:ارفع رأسك فانظر إلى الجنان فرفع رأسه فقال:يا رب أرى مدائن من فضة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ لأي نبي هذا لأي صديق هذا لأي شهيد هذا قال الله:هذا لمن أعطاني الثمن قال:يا رب فمن يملك ذلك قال:أنت تملكه قال:بماذا يا رب قال:بعفوك عن أخيك قال:يا رب قد عفوت عنه قال الله ﷻ:خذ بيد أخيك فادخل الجنة ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك:(فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله ﷻ يصلح بين المؤمنين يوم القيامة)[1]

والشاهد في هذا الحديث قوله ﷺ (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) فإصلاح ذات البين هو توطيد العلاقات والصلات بين الناس على أساس من الود والمحبة والألفة مما يحقق الفوز العظيم بدخول الجنان.

- وهي سبب من أسباب رفع الدرجة والمقام في الآخرة.

قال في الإحياء:يقال:إن الأخوين في الله إذا كان أحدهما أعلى مقاما في الجنة من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه، وإنه يلتحق به كما تلتحق الذرية بالأبوين والأهل بعضهم ببعض؛لأن الأخوة إذا اكتسبت في الله لم تكن دون أخوة الولادة، قال ﷻ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ..﴾[2]

وفي الحديث عن أبي هريرة قال:قال رسول الله ﷺ إن في الجنة لعمدا من ياقوت عليها غرف من زبرجد لها أبواب مفتحة تضيء كما يضيء الكوكب الدري قلنا يا رسول الله من يسكنها قال:المتحابون في الله ﷻ والمتجالسون في الله ﷻ والمتلاقون في الله ﷻ[3]

(١) حسن الظن بالله ١٠٩
(٢) سورة الطور:آية ٢١
(٣) المنتخب من مسند عبد بن حميد،ص٤١٨

- وهي سبب من أسباب النجاة والأمن في الآخرة:

فقد ورد عن معاذ بن جبل قال:سمعت رسول الله ﷺ يقول(المتحابون في الله في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله، يفزع الناس ولا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون)[1]

- وهي سبب في أن يظل الإنسان في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله:

ففي الحديث عن أبي هريرة قال:قال رسول الله ﷺ (إن الله يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي)[2] وفي رواية(المتحابون في الله في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله يغبطهم بمكانهم النبيون والشهداء)[3] وفي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ عن ربه تبارك وتعالى(حقت محبتي على المتحابين فيّ وحقت محبتي على المتناصحين فيّ وحقت محبتي على المتزاورين في وحقت محبتي على المتباذلين في وهم على منابر من نور يغبطهم النبيون والصديقون بمكانهم)[4] وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:(سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... فذكر منهم:-ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه)[5] فأي فضل بعد هذا الفضل؟! وأي فائدة أعظم وأجل من تلك الفائدة؟!

- وهي تحقق للإنسان أعظم رفقة في الآخرة:

أو ليس المرء يحشر مع من أحب؟! فالأخوة بالله تحقق للإنسان رفقة هي أعظم رفقة ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ هو إذن جزاء مَن جنس العمل؛رفقة صالحة كريمة في الدنيا جزاؤها رفقة عظيمة في الآخرة، وفي المقابل رفقة سوء في الدنيا تكون وبالا على صاحبها ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ ولن يفيد الندم أو يجدي ﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا

(١) المعجم الكبير للطبراني ٢٠/ ٨١
(٢) صحيح مسلم
(٣) صحيح ابن حبان ٢/ ٣٣٨
(٤) صحيح ابن حبان ٢/ ٣٣٨
(٥) متفق عليه

خَلِيلاً ﴾ولن ينفع اشتراكهم في العذاب ولن يفيد﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾

❁❁❁

أثر الصُّحْبَة وخطرها

إن للصحبة أثرها البالغ، وتأثيرها البليغ، وخطرها الجسيم؛وللصداقة -خاصة -أثر عميق في توجيه النفس والعقل، ولها نتائج هامة فيما يصيب الجماعة كلها من تقدم أو تأخر، أو من قلق واطمئنان؛بل إن أي صحبة -سواء أكانت صالحة أو فاسدة -لا تخلو -في الغالب -من تأثير وتأثر، ولذلك قيل:احذر معاشرة البطالين فإن الطبع لص[1] ولذلك فكثيرا ما نرى من أهل الصلاح من يزل زلات استدرجته إليها بطانة فاسدة، زينت له الباطل، وحجبت عن عينيه الحق والصواب؛يقول الغزالي:وأما المبتدع ففي صحبته خطر سراية البدعة وتعدي شؤمها إليه، فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة فكيف تؤثر صحبته[2] ولذلك لما أراد قاتل المائة نفس أن يتوب قيل له(اخرج من القرية الخبيثة التي أنت فيها إلى القرية الصالحة[3])فنصح أن يترك بلده؛لأنها أرض سوء، وقد صار فيها معروفا بالشر والفجور، والفساد والإفساد؛وربما لا يتجرأ أحد على نصحه وزجره.

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٧٥٥

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ٢/١٤٢

(٣) القصة في حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ٤/ ٢١١٨ عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال:كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعه وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة فقال لا فقتله فكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة قال قتادة فقال الحسن ذكر لنا أنه لما أتاه الموت نأى بصدره.

وقد أشار القُرْآن الْكَرِيم إلى خطر مخالة أهل الغواية والفساد، وحذر منها الرسول ﷺ في قوله﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (١)

قال الثعالبي:في هذه الآية "توقيف على ما نجاه الله منه من مخالة الكفار والولاية لهم"ذلك أنهم لم يكونوا ليتخذوه خليلا إلا إذا أطاعهم وأرضاهم، وذلك إنما يكون بترك البلاغ، أو كتمان بعض المنزل، أو مجاراتهم في بعض ما يطلبون من المنكرات"فعن ابن جبير ومجاهد:نزلت الآية لأنهم قالوا للنبي ﷺ:لا ندعك تستلم الحجر الأسود حتى تمس أيضا أوثاننا على معنى التشرع، وعن ابن إسحاق وغيره أنهم اجتمعوا إليه ليلة فعظموه وقالوا له:أنت سيدنا ولكن أقبل على بعض أمرنا ونقبل على بعض أمرك فنزلت الآية في ذلك، ويقال:إن المشركين قالوا للنبي ﷺ اطرد عن مجلسك سقاط الناس ومواليهم حتى نجلس معك فهمّ النبي ﷺ أن يفعل ذلك فنزلت"(٢)، والمقصود أنه لو أطاعهم وأرضاهم فصار لهم خليلا أي صفيا وصديقا -وحاشاه ﷺ -فقد عصى الله ﷻ وأسخطه، وفقد معيته ومحبته، وخرج عن ولايته إلى ولايتهم، وفي هذا ما فيه من بيان لأثر الصحبة وخطرها، كما كشف القرآن الكريم عن أثر الصاحب على صاحبه، إن كان صالحا، أو فاسدا، في مواقف عملية، ونماذج حية؛لها الأثر الكبير في النفس، وتأتي إن شاء الله عند الحديث عن نماذج للصحبة بنوعيها.

كما وردت أحاديث في بيان أثر صحبة الأخيار، منها ماورد عن عائشة قالت:قال رسول الله ﷺ(إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق:إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء:إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه)(٣) وقال ﷺ(مثل الجليس الصالح

---

(١) سورة الإسراء:آية ٧٣،٧٤

(٢) الجواهر الحسان للثعالبي ج٢/ص٣٥٢،٣٥٣،بحر العلوم للسمرقندي ج٢/ص٣٢٣ بتصرف يسير

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٠/٣٤٥،وقال محققه الشيخ شعيب الأرناءوط:حديث صحيح،وأخرجه أبو داود في سننه ٣/١٣١،وقال الشيخ الألباني:صحيح،وهو عند النسائي والبيهقي بلفظ:(من ولي منكم عملا فأراد الله به خيرا جعل له وزيرا صالحا إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه (المجتبى من=

والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه أو تجد ريحه وكير الحداد يحرق بدنك أو ثوبك أو تجد منه ريحا خبيثة)[1] وقال:(المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)[2] وهذه الأحاديث- وإن كانت في بيان أثر الصحبة على الإنسان؛فهي في الوقت نفسه تبين ما ينبغي أن يكون عليه الصاحب من خلال، وما يجب عليه تجاه صاحبه.

- أثر الصُّحْبَة في الدنيا:

لا يخفى بالعلم والمشاهدة ما لصحبة الأخيار من آثار طيبة، ونتائج مرضية، وما لصحبة الأشرار من أضرار ومفاسد، فمن ذلك:

- أن في صحبة الأخيار:دفعاً لهمة الصاحبين؛فلا تكاد تجد داعية ناجحا، أو مخترعا ماهرا، أو ..إلا وكان له قدوة صالحة، أو رفقة وقرناء صالحون، كانوا دافعين له إلى الخير والتقدم، أو ملهمين له ومحمسين.

= وأما الأشرار:فهم في صحبتهم معوقون مثبطون، كما قال الله ﷻ عن المنافقين﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ وقال:﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

- أن في صحبة الأخيار:عوناً على الخير وجلباً للحسنات:فكل منهما يذكر صاحبه، ويعينه على أمر دينه ودنياه، وقد وصف الله ﷻ المؤمنين بقوله﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ وقوله﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

= وأما الأشرار:فهم عون على الشر، كما قال الله ﷻ

=السنن٧/١٥٩،السنن الكبرى٤/٥،٤٣٤/٢٢٩،السنن الكبرى للبيهقي١٠/١١١،وعند الإمام أحمد في مسنده ٦/٧٠ بلفظ مقارب) وفي مسند الشهاب١/٣٢١ بلفظ:(من ولي شيئا من أمر المسلمين فأراد الله به خيرا جعل معه وزيرا صالحا فإن نسي ذكره وإن ذكر أعانه وما من رجل من المسلمين أعظم أجرا من وزير صالح مع إمام يطيعه ويأمره بذات الله.

(١) متفق عليه

(٢) رواه أبو داود والترمذي ــ وحسّنه ــ والحاكم،وقال:صحيح إن شاء الله.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ كما أن صحبتهم سبيل إلى انتقال العادات السيئة والأخلاق الفاسدة، فمن المشاهد أن عدوى السيئات أسرع سريانا وأشد فتكا من عدوى الحسنات، وفي الحديث أن مثل الجليس السوء كنافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة، وإذا كان هذا مثل الجليس العابر؛فكيف بصحبة العمر، وصداقة الزمان الطويلة، والخلطة الدائمة في السراء والضراء؟!

والحق أن كثيراً من الجرائم والمفاسد والانحرافات(من ارتكاب للكبائر والموبقات، ومن تناول للمخدرات..وغيرها) ليست إلا أثر من آثار الصُّحْبَة الفاسدة، وكما قيل:الصاحب ساحب، نعوذ بالله من صحبة الأشرار، ونسأله ﷻ رفقة الصالحين في الدنيا والآخرة.

- أن في صحبة الأخيار:تحسيناً للسمعة؛فيعرف الإنسان بالصلاح ما دام رفقاؤه صالحين، وفي الحديث(المرء على دين خليله؛فلينظر أحدكم من يخالل).

= وأما الأشرار:فصحبتهم تجعل الإنسان في نظر الناس متهماً -ولو كان مبرءا - لما أن رفقاءه فسّاق عصاة، وقد قيل:

لا تسل عن المرء وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

- أثر الصُّحْبَة في الآخرة:

قد بيَّنا فيما سبق كيف استوجبت صحبة الأخيار محبة الله، وكيف ترقت بهم إلى درجات علية مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴿وحسن أولئك رفيقا﴾لما أن المرء يحشر مع من أحب، وكيف أن الله ﷻ يظل المتحابين يوم القيامة بظله، يوم لا ظل فيه إلا ظله، وكيف أن الصاحب الصالح يشفع في إخوانه الصالحين، بينما تنقطع الصحبة بين الأشرار، ويفر بعضهم من بعض، ويتبرأ كل منهم من تبعات وساوسه المضلة، ويندمون على ما كان من صحبتهم للغواة الأشرار، متحسرين على ما فاتهم من صحبة الأخيار الأبرار، لا سيما حين يرون شفاعتهم بعضهم لبعض، يقولون﴿فما لنا من

شَافعينَ وَلاَ صَديق حَميم﴾ بيَّنا هذا كله في فضائل صحبة الأخيار وعليه المزيد بما يغني هنا عن المزيد، والله المستعان، وعليه التكلان.

صفات الصاحب الصالح

إذا كنا قد وقفنا فيما سبق على أنواع الصحبة، وعرفنا أنها إما صحبة للأخيار وإما صحبة للأشرار، وأن الصاحب إما أن يكون صالحا أو فاسدا، كما وقفنا على التحذير النبوي من صحبة رفقاء السوء، وحثه على التدقيق وحسن الاختيار للصاحب في قوله ﷺ (المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل) فإن الأمر يتطلب الوقوف على الصفات التي يجب توفرها في الصاحب حتى تكون صحبة مباركة طيبة، بعيدة عن الغوَاية والإضلال، والتأثر بسيئ الخلال؛ وقد جاء النهي في القرآن عن صحبة قوم، والحث على صحبة آخرين، وهذا بيانه:

أولاً: بعض خصال الصُّحْبَة المذمومة:

قال ﷻ ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا﴾ وقال ﷻ ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾ فحين تفترق المعايير والأهداف والغايات وتصور الحياة كلها هذا الاختلاف؛ فلا مجال -حينئذ- إلى مشاركة أو تعامل أو حتى تعارف ينشأ عنه قسط من الاهتمام، ومن ثم لا يمكن أن تقوم علاقة أو صحبة أو شركة أو تعاون، أو أخذ وعطاء، أو اهتمام واحتفال بين مؤمن بالله، وآخر أعرض عن ذكره ولم يرد إلا الحياة الدنيا، وكل قول غير هذا فهو محال ومراء، يخالف عن أمر الله ﴿فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا..﴾ (١)

ونحن نورد أولاً صفات صاحب السوء على أساس أن التخلية قبل التحلية، ولأن ذكر الشر ومعرفته سبيل لاتقائه كما قال القائل: عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه، ومن لم يعرف الشر يقع فيه، وفي الحديث: كان الناس يسألون عن الخير

(١) الظلال ٦/٣٤١١

وكنت أسأل عن الشر مخافة أن يدركني، وهو كذلك مدخل لمعرفة ما يقابله من الخير والحسن، وكما قيل: بضدها تتميز الأشياء، فمن الصحبة السيئة صحبة:

- **الفاسق:** فقد قال الله تعالى ﴿واتبع سبيل من أناب إليّ﴾ قال الغزاليّ: وفي مفهوم ذلك زجر عن الفاسق (١) فإن مصاحبة الفساق تهوِّن أمر المعصية على القلب وتبطل نفرة القلب عنها، قال سعيد بن المسيب: لا تنظروا إلى الظلمة فتحبط أعمالكم الصالحة، فهؤلاء لا سلامة في مخالطتهم؛ وإنما السلامة في الانقطاع عنهم كما قال الله تعالى ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ أي سلامة -والألف بدل من الهاء- ومعناه: إنا سلمنا من إثمكم وأنتم سلمتم من شرنا. (٢)
- **الكذاب:** فإنك منه على غرور وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب.
- **الأحمق الجاهل:** فإنك لست منه على شيء يريد أن ينفعك فيضرك، قال علي ﷺ:

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه ... فكم من جاهل أردى حليما حين آخاه

يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ما شاه ... وللشيء من الشيء مقاييس وأشباه

- **البخيل:** فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه.
- **الجبان:** فإنه يسلمك ويفر منك عند الشدة.

وعلى الجملة فإنه ينبغي أن تحذر صحبة رفقاء السوء الذين لا يبالون بما يقترفون من معاصي، بل يفاخرون بارتكابها، وكل من تحللوا من القيود الدينية والخلقية من الصدق والأمانة والحياء واحترام الوعود ومراعاة حق الكبير والصغير والرحمة بالضعفاء من اليتامى والفقراء والنساء، فإن معاشرة أمثال من شأنها أن تعدي الصحيح وتقسي القلب وتكسب الجرأة على تعدي حدود الحدود.

(١) إحياء علوم الدين
(٢) الإحياء بتصرف

ثانياً: صفات الصَّاحب الصَّالح:

ينبغي للإنسان أن يحسن اختيار صاحبه وانتقاءه: فلا يكون إيثاره بالصداقة لغرض من مال أو جاه أو نحوه، بل يجب أن يكون الدين والخلق أساس الصُّحْبَة والأخوة، قال الله ﷻ ﴿واصْبِرْ نفسَكَ مَعَ الذينَ يَدْعُونَ رَبهم بالغداة والعَشِيِّ يريدون وجهَهُ﴾ أي اصبر نفسك مع هؤلاء، صَاحبهم وجالسهم وعلمهم؛ ففيهم الخير، وأوصى حكيم ولده فقال: يابنيَّ، إياك وقرين السوء؛ فإنما صلاح أخلاق المرْء بمقارنة الكرام؛ وفسادها بمحادثة اللئام، وإنما يعرف المرْء بقرينه، وهذه أهم خصال الصاحب الصالح:

= **أن يكون صالحاً ذا دين:** فلا يعاشر إلا من يثق بدينه وأمانته في ظاهره وباطنه؛ وقد حث الله ﷻ على ملازمة أهل الصلاح والإيمان في قوله ﷻ ﴿واتبعْ سبيلَ من أناب إليه﴾ كما ذمَّ سبحانه مودة أعدائه فقال ﷻ: ﴿لا تجدُ قوْما يُؤمنونَ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية[1] وقال النبي ﷺ: (لا تصَاحب إلا مؤمنا..) وقال ﷺ: (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)[2] وقد ورد: (من أراد الله به خيرا رزقه خليلا صالحا إن نسي ذكره وان ذكر أعانه)[3] وعن علي ﷺ قال: من سعادة المرْء أن يكون إخوانه صالحين[4] ولا شك أن أدنى فائدة تتحصل من صحبة الصَّالحين الاستحياء من مُقارفة المعاصي في حُضورهم، فضلا عن أن تؤتى ثم يجاهر بها في مجالسهم افتخارا كما هو من عادة الفسَّاق، وقد ورد: أحيوا الطاعات بمجالسة من يستحيي منه، وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: ما أوقعني في بلية إلا صُحْبَة من لا أحتشمه.

---

(١) المجادلة: من الآية٢٢

(٢) رواه أبو داود والترمذي ــ وحسَّنه ــ والحاكم، وقال: صحيح إن شاء الله.

(٣) حديث من أراد الله به خيرا رزقه أخا صالحا إن نسي ذكره وان ذكر أعانه غريب بهذا اللفظ والمعروف أن ذلك في الأمير ورواه أبو داود من حديث عائشة إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه الحديث ضعفه ابن عدي ولأبي عبد الرحمن السلمى في آداب الصحبة من حديث على من سعادة المرء أن يكون إخوانه صالحين

(٤) آداب الصحبة للسلمي

= **أن يكون عاقلا:** ويعنى بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه، ولا خير في صحبة الأحمق؛ إذ قد يضرك من حيث يريد أن ينفعك وهو لا يدري.

قال جعفر الصادق: لا تصحب الأحمق؛ فإنك لست منه على شيء، يريد أن ينفعك فيضرك.

وقال الشاعر:

إني لآمن من عدو عاقل وأخاف خلا يعتريه جنون

= **أن يكون حسن الخلق:** إذ رُبَّ عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه وخالف ما هو المعلوم عنده لعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه فلا خير إذن في صحبة هذا.

ومعلوم أن الناس تركَنُ إلى صاحب الخلق الحسن وتحبه، وتنفر عن صاحب الخلق السيئ وتبغضه، فحسن الخلق يثمر الألفة والمودة، وسوء الخلق ينتج الوحشة والنفرة؛ ولذلك كان المؤمن إلفا مألوفا، كما بيَّن الرسول ﷺ[1]

ومن جملة هذه الخصال الطيبة النافعة ما جمعه علقمة العطاردى في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة قال: يا بني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب:

- من إذا خدمته صانك.
- وإن صحبته زانك.
- وإن قعدت بك مؤنة مانك.
- اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها.
- وإن رأى منك حسنة عدها.
- وإن رأى سيئة سدها.
- اصحب من إذا سألته أعطاك.

---

(١) رواه أحمد والطبراني من حديث سهل بن سعد والحاكم من حديث أبي هريرة وصححه، وتمامه: (المؤمن إلفٌ مألوفٌ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف).

- وإن سكت ابتداك.
- وإن نزلت بك نازلة واساك.
- اصحب من إذا قلت صدق قولك.
- وإن حاولتما أمرا أمرك.
- وإن تنازعتما آثرك.

ولا مانع أن يتطلب في الصديق أن يكون عوناً لصديقه في أمور الدنيا والدين، فعن عليّ رضي الله عنه قال: إن أخاك الحق من كان معك، ومن يضر نفسه لينفعك، ومن إذا ريب زمان صدعك شتت فيه شمله ليجمعك، وقال ابن أبي الحواري قال لي أستاذي أبو سليمان يا أحمد لا تصحب إلا أحد رجلين رجلا ترتفق به في أمر دنياك أو رجلا تزيد معه وتنتفع به في أمر آخرتك، والاشتغال بغير هذين حمق كبير.

وعلى الجملة.. فإن الإنسان ينبغي له أن يحرص على مصاحبة الأخيار وذوي الخصال الطيبة عامة من صدق وأمانة، ولا سيما الموسومين بحكمة في القول، وسداد في الرأي، ورشاد وصلاح في السلوك والفعل، ويتجنب مصاحبة الفساق والعصاة، قال عمر رضي الله عنه في الحث على طلب التدين في الصديق: عليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم؛ فإنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء...واحذر صديقك إلا الأمين من القوم ولا أمين إلا من خشي الله فلا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره، ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى.

وقد ورد أن عيسى عليه السلام قال لأتباعه: تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي وتقربوا إلى الله بالتباعد منهم والتمسوا رضا الله بسخطهم، قالوا: يا روح الله فمن نجالس؟ قال: جالسوا من تذكركم الله رؤيته، ومن يزيد في عملكم كلامه، ومن يرغبكم في الآخرة عمله.

وروي في الأخبار السالفة أن الله عز وجل أوحى إلى موسى عليه السلام: يا ابن عمران، كن يقظانا، وارتد لنفسك إخوانا، وكل خدن وصاحب لا يؤازرك على مسرتي فهو لك عدو.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام فقال: يا داود، مالي أراك منتبذا

وحيدا، قال: إلهي، قليت الخلق من أجلك، فقال: يا داود، كن يقظانا، وارتد لنفسك خدنا، وكل خدن لا يوافقك على مسرتي فلا تصاحبه؛ فإنه لك عدو؛ يقسي قلبك ويباعدك مني.

ولا شك أن عثور الإنسان على صديق ببعض هذه الصفات مطلب عظيم، وكنز ثمين، ولكن ما يزال الناس بخير، ولن يعدم الإنسان خليلا وأكثر يصاحبونه على الصفاء وخالص الود، لولا أن للمتشائم فكرا آخر، فهذا ابن الرومي- المعروف بنظرته التشاؤمية-يحذر من الإكثار من الأصدقاء، ويرى أنهم مزرعة الأعداء، ولعلنا نستفيد من بعض كلامه ألا نتطلب الكثرة لذاتها، فنكثر من الأصدقاء من غير تدقيق في الانتقاء وحسن الاختيار، فهذا غاية ما يتضمنه كلامه من الحكمة؛ فنكون حريصين على انتقاء الصديق وحسن اختياره، يقول ابن الرومي:

عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرن من الصحاب

فإن الداء أكثر ما تراه يحول[1] من الطعام أو الشراب

إذا انقلبَ الصَّديق غداً عدواً ... مُبيناً والأمور إلى انقلاب

ولوْ كَان الكثير يطيب كَانت ... مُصَاحَبَة الكَثير من الصَّواب

ولكن قلَّ ما استكثرت إلا ... قطت على ذئاب في ثياب

فدعْ عَنك الكثير فكمْ كَثير ... يُعاف وكَمْ قليلٍ مُستطاب

وما اللُّجج[2] الملاح[3] بمرويَات ... وتلقى الريَّ في النطف[4] العذاب

فالشاعر[5] هنا يحذر من الاستكثار من الأصحاب؛ لأنَّ الإكثار من الأصدقاء مدعاة إلى تحول بعضهم إلى أعداء، ويبرهن على فكرته بأن المرض في معظم الأحيان يحدث بسبب الإفراط في الطعام والشراب-فالمعدة بيت الداء كما يقولون- ثم يخبر أن الصديق إذا تغير انقلب إلى عدو مبين، ويوضح

---

(١) يحول: يكون.
(٢) اللجج: جمع لجة، وهي معظم الماء.
(٣) الملاح: المالحة.
(٤) النطف: جمع نطفة، وهي الماء القليل الصافي العذب.
(٥) هو عليّ بن العباس المعروف بابن الروميّ، من شعراء الدولة العباسية المشهورين، توفي عام ٢٨٣هـ.

أن الذي يكثر من الأصدقاء دون انتقاء لا بد أن يقع على أشخاص كالذئاب، ثم يحث على الإقلال مبرهنا على أنه خير من الإكثار بكون مياه البحر-على الرغم من غزارتها-لا تروي، في حين يجد المرء الريّ في المياه القليلة العذبة، ونحن مع الشاعر في أن القلة المختارة خير وأجدى من الكثرة غير المنتقاة.

آداب وحقوق الصحبة

وبعد أن وقفنا على صفات الصَّاحب الصَّالح، وعرفنا ما يجب أن يتحقق فيه من الصفات والخصال التي هي أسس اختيار الصديق، وأدركنا بالتالي ما ينبغي أن يتجنب من صفات عند انتقاء الصحاب، لزم أن نعرف حق الصديق على صديقه وما ينبغيَ أن يراعيه في صحبته من آداب.

إن الإسلام دين تجمع وألفة وتعارف وتعاون بين الناس، قال النبي ﷺ (المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف)[1] والأخوة في الإسلام من أهم وأقوى أسباب التآلف؛إذ ينبغي أن يكون أساس الألفة والصُّحْبَة الدين وحسن الخلق، قال الحافظ شمس الدين ابن القيم رحمه الله:اعلم أن الله ﷻ قد ألف بين المسلمين بالإسلام، وجعلهم به إخوة متناصرين متعاضدين يدا واحدة بمنزلة الجسد الواحد، فأغناهم بالإسلام عن الحلف، بل الذي توجبه أخوة الإسلام لبعضهم على بعض أعظم مما يقتضيه الحلف[2] فالتحاب والتآلف إنما هو بالإيمان والعمل الصالح كما قال ﷻ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ أيَ يلقي بينهم المحبة فيحبَ بعضَهم بعضا فيتراحمون ويتعاطفون بما جعل الله لبعضهم في قلوب بعض من المحبة، قال ابن عباس:يحببهم ويحببهم إلى عباده، وقال هرم بن حيان:ما أقبل عبد بقلبه إلى اللهﷻ إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم

(١) رواه أحمد والطبراني من حديث سهل بن سعد و الحاكم من حديث أبي هريرة وصححه.

(٢) حاشية ابن القيم ٨/ ١٠١،١٠٠

ورحمتهم.

وقد عني الإسلام بتقوية العلاقات وتنمية الصلات، فجعل لها آدابا وحقوقا بمراعاتها تصفو الأخوة عن شوائب الكدورات ونزغات الشيطان، ويتقرب بمراعاتها إلى الله زلفى وتنال الدرجات العلى بالمحافظة عليها، وهذه جملة من تلك الآداب الفاضلة، والأخلاق المكملة، والحقوق المتبادلة، التي ينبغي التحلي بها ما أمكن، بدأنا بما له مرجع قرآني؛لأنه موضوعنا في الأصل، واستكملنا فضائل الأخلاق من السنة النبوية؛لأنها المبينة للقرآن.

ولْيُعلم أننا لا نعدد هذه الآداب والحقوق باعتبارها آدابا وحقوقا قاصرة على الصاحب الصديق؛بحيث لا تراعى إلا معه؛وإنما هي آداب وحقوق عامة، بيْد أنها إذا كانت واجبة على المؤمن تجاه عامة المؤمنين؛فأولى بها ثم أولى المقربون من الإخوان والأصدقاء والجيران، وفي مقدمة هؤلاء جميعا الأبوان، لقد أمر الله ﷻ ورسوله بإحسان صحبة الوالدين، حيث قال ﷻ ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا..﴾ وسئل رسول الله:من أحق الناس بحسن الصُّحْبَة؟ قال:أمك..الحديث.

وكذلك الزوج، وقد لقبت في القرآن بالصاحبة؛لملازمتها لزوجها، كما قال ﷻ ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ﴾ولها على زوجها، ولزوجها عليها من الحقوق المؤكدة ما يجعلهما من أولى الناس بالحقوق المذكورة.

حث القرآن على مراعاة حق الصديق:

ينبغي أن يعلم كلا الصاحبين أن عليه حقوقا واجبة تجاه صديقه، والتزامات مفروضة ألزمه بها الدين، وأكدها، ونص عليها في القرآن في غير موضع، ومن ذلك قولهﷻ ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا

يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾(١)

فقد تضمنت الآية معنى بليغاً، وهو ذكر الصاحب والتوصية به عطفا على أمور هي من أصول الدين وأسسه، عطف الإيصاء بالصاحب وأتبعه بأمور هي ذروة سنام هذا الدين، وفي مقدمتها الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، والتوصية بالوالدين..الخ، وقد وردت أقوال في بيان المقصود بـ﴿الصاحب بالجنب﴾في الآية:

- قال الفخر:﴿ الصاحب بالجنب﴾هو الذي صحبك بأن حصل بجنبك إما رفيقا في سفر وإما جارا ملاصقا وإما شريكا في تعلم أو حرفة وإما قاعدا إلى جنبك في مجلس أو مسجد، وقيل الصاحب بالجنب المرأة فإنها تكون معك وتضجع إلى جنبك..أو غير ذلك من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه وتجعله ذريعة إلى الإحسان.

- وقال ابن عباس وابن جبير وقتادة ومجاهد والضحاك:﴿ الصَّاحِب بالجنب﴾هو الرفيق في السفر.

- وقال علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن أبي ليلى وإبراهيم النخعيﷺ:﴿الصاحب بالجنب﴾الزوجة.

والأولى القول بأنه يعم كل ما ذكر، قال السعديّ:﴿ الصاحب بالجنب﴾قيل الرفيق في السفر وقيل الزوجة وقيل الصاحب مطلقا ولعله أولى فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر ويشمل الزوجة فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه من مساعدته على أمور دينه ودنياه والنصح له والوفاء معه في اليسر والعسر والمنشط والمكره وأن يحب له ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه وكلما زادت الصُّحْبَة تأكد الحق وزاد.(٢)

ومن الآيات التي تؤكد على مراعاة حق الصاحب على صاحبه قولهﷻ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ

(١) سورة النساء:آية ٣٦
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل للكلبي ج١/ص١٤١،والتفسير الكبير للفخر الرازي ج١٠/ص٧٨،والكشاف للزمخشري ج١/ص٥٤١،والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي ج٢/ص٥١،والجواهر الحسان للثعالبي ج١/ص٣٧٢،٣٧١،وبحر العلوم للسمرقندي ج١/ص٣٢٨،تفسير السعدي ج١/ص١٧٨

حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاَتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(١)وقد تضمنت هذه الآية الكريمة معنى عظيماً، وهو عطف الأصدقاء على الأقرباء، ففي معرض تفصيل من يؤذن بالتبسط في بيوتهم ذكر الصديق، ذكر عطفا على الأب، والأم، والإخوة، والأخوات، والأعمام، والعمات، والأخوال، والخالات، وإنها للفتة عظيمة أن يُدرج الصديق ضمن هؤلاء المقرَّبين؛مما يظهر ما للصديق من منزلة ومكانة في الإسلام عامة، وفي الجانب الاجتماعي خاصة، قال الثعالبيّ:قرن ﷻ في هذه الآية الصديق بالقرابة المحضة الوكيدة؛لأن قرب المودة لصيق.(٢)

سبب النزول:

أورد البغويّ في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس قال:نزلت في الحارث بن عمرو ﷺ خرج غازيا مع رسول اللهﷺوخلف مالك بن زيد على أهله، فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال تحرجت أن آكل طعامك بغير إذنك فأنزل الله هذه الآية.(٣)

قال القرطبي:قرن اللهﷻفي هذه الآية الصديق بالقرابة المحضة الوكيدة؛لأن قرب المودة لصيق قال ابن عباس في كتاب النقاش:الصديق أوكد من القرابة؛ألا ترى استغاثة الجهنميين﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.(٤)

وقال الكلبي:قرن الله الصديق بالقرابة لقرب مودته، وعن ابن عباس:الصديق أوكد من القرابة.(٥)

وقال أبو السعود:الأصدقاء وإن لم يكن بينكم وبينهم

(١) سورة النور:آية٦١
(٢) الجواهر الحسان للثعالبي ج٣/ص١٢٧
(٣) تفسير البغوي ج٣/ص٣٥٨
(٤) تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبيّ ج١٢/ص٣١٦
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل للكلبي ج٣/ص٧٣

قرابة نسبية فإنهم أرضى بالتبسط وأسر به من كثير من الأقرباء.(١)

وأورد الفخر عن ابن عباس رضي الله عنهما:الصديق أكثر من الوالدين؛لأن أهل الجنة لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمهات بل بالأصدقاء فقالوا :﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.(٢)

والمقصود أن في الآية قولين:

الأول:أنه يجوز للرجل أن يأكل ويشرب في بيت صديقه من غير استئذان بهذه الآية، وكان الحسن وقتادة يريان الأكل من طعام الصديق بغير استئذان جائزا.

والثاني:أن هذا التبسُّطَ والتصريحَ إما أنه:

- مقيد بمن علم رضاه بهذا.
- أو منسوخ:بمعنى أنه كان في صدر الإسلام ثم نسخ.
- أو مخصوص بغير المسلمين:قال أبو مسلم هذا في الأقارب الكفرة أباحﷺ في هذه الآية ما حظره في قوله﷽ ﴿لا تجدُ قوماً يُؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللهَ ورَسُولَهُ﴾قال الآلوسي:وليس بشيء.(٣)

قال البيضاويّ:هذا كله إنما يكون إذا علم رضا صاحب البيت بإذن أو قرينة؛ولذلك خصص هؤلاء فإنه يعتاد التبسط بينهم، أو كان ذلك في أول الإسلام فنسخ.(٤)

واختلف القائلون بالنسخ في تعيين الناسخ:

فقيل:الناسخ قوله﷽(لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه)وقوله عليه الصلاة والسلام من حديث ابن عمر رضي الله عنهما(لا يحلبن أحد ماشية أحد إلا بإذنه).

والقائلين بهذا يلزمهم القول بنسخ القُرآن بالسنة.

(١) إرشاد العقل السليم للعلامة أبي السعود ج٦/ص١٩٦
(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٤/ص٣٣
(٣) روح المعاني للآلوسي ج١٨/ص٢٢٠
(٤) تفسير البيضاوي ج٤/ص٢٠٢

وقيل:الناسخ قوله﷽ ﴿لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا﴾الآية.وقولهﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنوا لا تَدْخلوا بُيُوتَ النبيِّ إلا أن يُؤذنَ لكمْ إلى طعَامٍ غيْرَ ناظرينَ إناهُ﴾فإنهم منعوا من منزله﷽إلا بالشرط المذكور وهو عليه الصلاة والسلام أكرم الناس وأقلهم حجابا فغيرهﷺيعلم بالطريق الأولى.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾قال هذا شيء قد انقطع إنما كان هذا في أوله ولم يكنْ لهم أبواب وكانت الستور مرخاة فربما دخل البيت وليس فيه أحد فربما وجد الطعام وهو جائع فسوغه الله أن يأكله وقال ذهب ذلك اليوم، البيوت فيها أهلها فإذا خرجوا أغلقوا.

ولذلك ذهب الحنابلة إلى أنه يحرم على الشخص أن يأكل من بيت قريبه أو صديقه بلا إذن صريح أو قرينة.(١)

أقول:لا حاجة إلى القول بالنسخ؛إذ الأصل أن لا يصار إلى النسخ إلا إذا لم يمكن الجمع، والجمع ممكن وميسور.

وعندي أن المسألة أيسر من هذا؛إذ السماح في الآية مبنيّ على ما جرت العادة بالإذن فيه، فيكون المعتاد من ذلك كالمنطوق به، وهو مثل ما تتصدق به المرأة من بيت زوجها بالكسرة ونحوها من غير استئذانها إياه؛لأنه متعارف أنهم لا يمنعون من مثله، ونحو ما يأكل من بيت صديقه في وليمة أو غيرها إذا كان الطعام حاضرا غير محرز.(٢)

*** ومن اللطائف في هذه الآية الكريمة:**

إفراد لفظ"صديق"وللمفسرين في سرِّ هذا الإفراد كلام طيب:

- **فمن قائل:**إنما أفرد لفظ"صديق" إشارة إلى قلة الأصدقاء حتى قيل:

صاد الصديق وكاف الكيمياء معا
لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا.(٣)

- **ومن قائل:**إنه إشارة إلى أن شأن الصَّدَاقَة رفع الاثنينية (كلفظ زوج؛فإنه يشمل كلا الزوجين) ورفع الحرج في الأكل

(١) الناسخ والمنسوخ للكرمي ج١/ص٩٠
(٢) الجصاص ١٩٨/٥ بتصرف يسير
(٣) روح المعاني للآلوسي ج١٨/ص٢٢٠

من بيت الصديق؛لأنه رضى بالتبسط وأسر به من كثير من ذوي القرابة.(١)

- **ومن قائل:** لا سر في الأمر؛إذ الصديق يطلق على الواحد والجمع، ومثله العدو والخليط والقطين والعشير، قال جرير:

دعون الهوى ثم ارتمين قلوبنا بأسهم أعداء وهن صديق

*** ومن اللطائف في الآية كذلك:**

أنهم رتَّبوا على عطف الصديق على ذوي القربى أحكاماً:

- **منها:** أن عطف الصديق على ذوي القربى يقتضي استحقاقه للنفقة من صديقه عند الحاجة، كما هو شأن الأقربين.

- **ومنها:** أن العطف المذكور يستلزم أن لا تقطع يد الصديق إذا سرق صديقه، كما هو شأن الأقربين المذكورين في الآية حسبما ذهب إليه الإمام الشافعي حيث قال: لا قطع على من سرق من أبويه أو أجداده ولا على زوج سرق من امرأته أو امرأة سرقت من زوجها، قال الجصاص: والدليل على صحة قول أصحابنا قول الله ﷻ ﴿ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم﴾ إلى قوله ﴿أو ما ملكتم مفاتحه﴾ فأباح ﷻ الأكل من بيوت هؤلاء، وقد اقتضى ذلك إباحة الدخول إليها بغير إذنهم فإذا جاز لهم دخولها لم يكن ما فيها محرزا عنهم ولا قطع إلا فيما سرق من حرز وأيضا إباحة أكل أموالهم يمنع وجوب القطع فيها لما لهم فيها من الحق كالشريك ونحوه.

- **ومنها:** مسألة شهادة الصديق لصديقه: قال القرطبيّ: لا يجوز عندنا شهادة الصديق لصديقه كما لا تجوز شهادة القريب لقريبه.(٢)

وقد أجاب الجصاص بما يأتي:

أما استحقاقه للنفقة كما القريب: فقيل: هو منسوخ عنهم بالاتفاق ولم يثبت نسخ ذوي الرحم المحرم.

وأما القطع للسرقة: فقد قال الجصاص: ظاهر الآية ينفي القطع

(١) المرجع السابق ج١٨/ص٢٢٠
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبيّ ج١٢/ص٣١٦

من الصديق أيضا وإنما خصصناه بدلالة الاتفاق ودلالة اللفظ قائمة فيما عداه وعلى أنه لا يكون صديقا إذا قصد السرقة، ودليل آخر هو أنه قد ثبت عندنا وجوب نفقة هؤلاء عند الحاجة إليه وجواز أخذها منه بغير بدل فأشبه السارق من بيت المال لثبوت حقه فيه بغير بدل يلزمه عند الحاجة إليه.(١)

الآداب والحقوق

بعد ما تبين مدى حرص الإسلام على حق الصاحب على صاحبه، وحثه على مراعاة حقه، فإنه ينبغي بيان هذه الحقوق والآداب لمراعاتها؛ذلك أن من حقوق الصاحب على لصاحبه:

- أن تتعرف عليه تعرفاً كاملاً:

أي أن تعرف عنه ما يميزه لك تميزا كافياً؛ لأنه ينبغي على من يريد صحبة أحد أو صداقته أن يبدأ بالتعارف عليه؛ فالتعارف أمر مطلوب بين الناس عموما، وقد بيَّن الله تعالى في القرآن أنه خلق الناس كلهم من أصل واحد وجعلهم شعوبا وقبائل من أجل أن يتعارفوا، وهذا في قوله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٢) فيتعرف الصَّاحب على صَاحبه بأن: يسأله عَن نفسه من يكون؟ وعن اسمه، واسم أبيه، وموطنه، وعمله، ومنزله، وهذا التعارف، وهذه المعلومات عن الصَّاحب من شأنها:

= أن توطد العلاقة بينهما بما تزيل من أسباب الجهالة التي من شأنها أن تسبب الوحشة؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: (إذا آخى الرجل الرجل فليسأله عن اسمه واسم أبيه وممن هو؛ فإنه أوصل للمودة)(٣).

= كما أنها تتيح للصاحبين التواصل والتزاور وأداء

(١) الجصاص ج٤/ص١١٠، ٨١
(٢) سورة الحجرات: آية ١٣
(٣) سنن الترمذي ٤/ ٥٩٩، قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ولا نعرف ليزيد بن نعامة سماعا من النبي صلى الله عليه وسلم ويروى عن بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم نحو هذا ولا يصح إسناده، وقال الشيخ الألباني: ضعيف، المعجم الكبير ٢٢/ ٢٤٤، ومسند عبد بن حميد ١٦١

الحقوق الواجبة على كلٍّ منهما تجاه صاحبه؛ فعن ابن عمر قال: رآني رسول اللهﷺ ألتفت فقال: إلى ما تلتفت؟ قلت: أخ لي أنا في طلبه، قال: يا عبد الله، إن أحببت رجلا فسأله عن اسمه واسم أبيه واسم جده وعشيرته، ومنزله؛ فإن مرض عدته، وإن استعان بك في حاجة أعنته.(١) وعن سالم عن أبيه قال: سأل النبيﷺ عن رجل فقال: من يعرفه؟ فقال رجل منهم: أنا. قال: اسمه؟ قال: لا أدري. قال: ما اسم أبيه؟ قال: لا أدري. قال: فمنزله؟ قال: لا أدري. قال: ليست هذه بمعرفة حتى تعرف اسمه واسم أبيه وقبيلته؛ إن مرض عدته، وإن مات اتبعت جنازته.(٢)

- أن تتفقد أحواله بأن تقوم علاقتكما على الصلة لا على الجفاء:

فتزوره من آن لآخر، وليكن حالك في هذا هو التوسط والاعتدال، لا التفريظ ولا الإسراف؛ فلا أنت بالمجافي الذي لا تصله ولا تسأل عنه إلا على فترات متباعدة؛ فتخل بحق الصداقة، ولا أنت بالمسْرف، الذي تجعل صاحبك يمل من الإكثار، ولتعلم أن لكل وقت شغله، ولكل بيت حرمة، فللزيارة آداب ينبغي أن تراعى، وللبيوت حرمة يجب أن تصان، فإذا أرت زيارة صاحبك فعليك أن تختار الوقت المناسب، وإذا دخلت بيته فعليك أن تتحفظ في نظرك ولفظك، ولآداب الزيارة موطن آخر مفصل غير هذا.

وقد أبرز الرسولﷺ فضل زيارة الإخوة في الله فقالﷺ: (إن رجلا زار أخا له في الله فأرصد الله له ملكا فقال: أين تريد؟ قال: أريد أن أزور أخي فلانا. فقال: لحاجة لك عنده؟ قال: لا. قال: لقرابة بينك وبينه؟ قال: لا. قال فبنعمة له عندك؟ قال: لا. قال: فبم؟ قال: أحبه في الله. قال: فإن الله أرسلني إليك يخبرك بأنه يحبك لحبك إياه، وقد أوجب لك الجنة)(٣).

(١) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في شعب الإيمان بسند ضعيف ورواه الترمذي من حديث يزيد بن نعامة وقال غريب ولا يعرف ليزيد بن نعامة سماع من النبي صلى الله عليه وسلم وفي رواية وعن اسم جده وعشيرته
(٢) الكبير للطبراني ١٢/ ٣٢١ ، ورواه البيهقي ١٠/ ١٢٥ مع اختلاف يسير.
(٣) رواه مسلم

وفي رواية أخرى عنهﷺ أنه قال: (إن رجلا زار أخا له في قريته فأرسل اللهﷻ على مدرجته ملكا فقال له: إلى أين يا عبد الله؟ قال أزور أخا لي في هذه القرية فقال: طبت وطاب ممشاك)(١).

= وكما يكون تفقد الأحوال بالزيارة يكون كذلك بالسُّؤال عنه، وتتبع أخباره وأوضاعه، وليكن القصد من وراء السؤال وتتبع الأخبار هو العناية والاهتمام بصاحبه، والاطمئنان على حاله، لا من باب الفضول، وإنما من أجل أن تشاركه شأنه من فرح وغيره؛ فعن عبد الله بن مسعود قال: كنا إذا فقدنا الأخ أتيناه؛ فإن كان مريضا كان عيادة، وإن كان مشغولا كان عونا، وإذا كان غير ذلك كان زيارة.

فيترتب على سُؤالك هذا عن صاحبك حقوق لا تتم إلا بالسؤال وتتبع أحوال الصديق كما ذكرناه عن ابن مسعود، فمن ذلك:

عيادته إذا كان مريضاً، ومساعدته إذا احتاج لمعونة...الخ.

- أن تشاركه فرحه وفرح ذويه وتشاركه حزنه وحزن ذويه:

وذلك بأن تهنئه على النعمة والخير الحاصل له، ولا سيَّمَا في مناسباته ومناسبات ذويه، فإذا كنت تحب لنفسك المزيد من النعم والخيرات ولا تزهدها؛ فأولى بك أن لا تستكثر على أخيك أو تحسده على ما ترى عليه من آثار نعم الله، بأن تتمنى زوالها عنه أو حصولها لنفسك؛ بل تفرح بذلك وتحمد الله على ما ترى من النعمة عليه كما تحمده على حصولها لك، قالﷻ ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ وقال الله ﷻ ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾(٢) وقالﷺ (لا تحاسدوا) بل ينبغي أن تساعده على تحقيقها مَا أمكنك هذا، وأن تفرح له، وأن تؤثره على نفسك.

كما أن عليك أن لا تتخلى عنه وقت شدته، أو تتلون عليه في الحالين جميعا، وقد أنشد المطرفي لبعضهم:

(١) رواه مسلم
(٢) النساء: من الآية ٥٤

خير إخوانك المشار، في المر وأين الشريك في المر أينا
الذي إن حضرته سرك وإن غبت كان سمعا وعينا.[1]

وفي قصة أسرى بدر حدث عمر بن الخطاب قال:(..فغدوت إلى النبي وأبي بكر وهما يبكيان فقلت يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما)[2]، ولنتأمل مدى فرح الصحابة لما نزلت توبة كعب بن مالك؛ وتدافعهم لتهنئته وتبشيره، يقول كعب:(..فلما صليت الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله ﷻ قد ضاقت على نفسي وضاقت على الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أو في على جبل سلع يقول بأعلى صوته يا كعب ابشر فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرج وآذن رسول الله للناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يباشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون وركض رجل إلى فرسا وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرتُ ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله فتلقاني الناس فوجا فوجا يهنئوني بالتوبة يقولون ليهنك توبة الله عليك قالكعب حتى دخلت المسجد فإذا برسول الله جالس حوله الناس فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة قال كعب فلما سلمت على رسول الله قال رسول الله وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله قال لا بل من عند الله وكان رسول الله إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه)[3]

- أن تفرج عنه همه:

وقد يكون هذا بوقوفك بجانبه وقت الشدة، تشعره أنك معه، وقد يكون بكلمة تزيل عنه بعض همه؛ كتذكيره بمواقف

(١) آداب الصحبة للسلمي ص٩٠، ٩١
(٢) البداية والنهاية ٣/٢٩٧
(٣) البداية والنهاية ٥/ ٢٦

شدة له تخطاها من قبل، أو مواقف لغيره، فقد كان الحق ﷻ يسلي عن نبيه حين يشتد كربه وهمه بتذكيره بما نال الأنبياء قبله﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾وقال ﷻ ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ ولعل قصص الأنبياء في القرآن الكريم كان من أهم أغراضها تسلية النبي ﷺ ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك..﴾ ولما انتاب الصِّديق الحزن والقلق وهو مع النبي صاحبه في الغار خفف عنه ووساه بقوله﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ وقد ورد أن الصحابة كان بعضهم يخفف مصاب بعض بالتذكير بالمصاب الأعظم، وهو موت رسول الله، يقول له: تذكر مصابك في رسول الله.

وهذا السلوك من الصديق لا يقل أبداً عن المواساة بالنفس والمال؛ فهو تنفيس لكربة مسلم، وهو مثاب على هذا ومندرج تحت قوله ﷺ(من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة).

- أن تكون في حاجته إذا استعان بك:

فعليك أن تساعده إذا احتاج لمعونة، سواء كانت تلك المعونة بالمال، أو باللسان، أو بالجهد، أو بالوقت:

قال رسول الله ﷺ:"ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته" وقوله"مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر)[1] وقوله ﷺ:(المُؤمِنُ لِلمُؤمِنِ كالبُنيَانِ يَشدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا)[2]

فإذا أصابته حاجة واسيته بمالك ما أمكنك: إما تفضلاً، وقد جاء في الحديث عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ:(أفضل دينار ينفقه الرجل: دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه الرجل

(١) متفق عليه، ولكن بألفاظ متقاربة ففي البُخَارِيّ : ك.الأدب، ب. رحمة الناس والبهائم " تَرَى المُؤمنينَ في تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى" وفي مسلم : ك.البر والصلة والآداب، ب. تراحم المسلمين وتعاطفهم وعاضدهم. كما رواه أحمد في أول مسند الكوفيين .
(٢) متفق عليه، رواه البُخَارِيّ، ك. المظالم والغصب، ب. نصر المظلوم . ومسلم ك. البر والصلة والآداب، ب. تراحم المسلمين وتعاطفهم وعاضدهم. كما رواه الترمذي والنسائي وأحمد.

على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله)(١)

وإما قرضاً، وإذا أقرضت صاحبت ثم وجدته معسرا فعليك أن تمهله،كما قال الله ﷻ ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٢) وعن رسول الله)قال):تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم فقالوا أعملت من الخير شيئا قال :لا،قالوا :تذكّر، قال :كنت أداين الناس فآمر فتياني أن ينظروا المعسر ويتجوزوا عن الموسر، قال :قال الله)تجوزوا عنه(□)(

-أن تخلص النصح له :

وذلك بأن تدعوه إلى كل بر وخير وتعينه عليه؛ وتنهاه عن كل إثم وشر، وتدفعه عنه،قال) □وتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ العِقَابِ (□)) وأساس هذه الصفة الإخلاص وسلامة الصدر، وأصله قوله □)إِلا مَنْ أَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(□).)

والنصح للناس هو خلق الأنبياء عامة، وفي مقدمتهم نبينا محمدﷺإذ كان مما مدحه اللهﷻبه النصح لأمته والحرص عليهم في قوله﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ..﴾(٦) وقوله﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٧) ويحكي عن نوح قوله لقومه:﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ..﴾(٨) وعن صالح:﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾(٩) وعن شعيب:﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ

(١) صحيح مسلم.
(٢) سورة البقرة: آية ٢٨٠
(٣) متفق عليه، واللفظ لمسلم.
(٤) سورة المائدة: آية ٢
(٥) سورة الشعراء:آية٨٩
(٦) سورة الأعراف:آية ١٥٧
(٧) سورة التوبة:آية ١٢٨
(٨) سورة الأعراف :آية ٦٢
(٩) سورة الأعراف :آية ٧٩

فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ فليكن للمؤمن في نبيه، والأنبياء جميعا القدوة والأسوة.

فهذه صفة الصَّاحب المخلص النصح لصاحبه، بل هي صفة المؤمنين عامة بعضهم مع بعض﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾وأما المنافق؛ فإنه لا ينصح صاحبه، وإذا نصح أمره بالمنكر، كما قال الله ﷻعنهم:﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾وهذه مقارنة واضحة مميزة للفريقين في القرآن، بل هي صفة يتحقق بها النجاة في الآخرة، فالإنسانية كلها في خسر إلا المتناصحين﴿وَالْعَصْرِ.إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ.إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾وإذا كان النصح والحرص حقا لكل مؤمن كما روى الإمام مسلم عن جرير بن عبد الله قال: بايعت النبيّ على النصح لكل مسلم؛ وما رواه عن تميم الداري أن النبي قال الدين النصيحة قلنا لمن قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم؛ وفي رواية عن ثوبان عن النبيﷺقال:"رأس الدين النصيحة فقالوا لمن يا رسول الله قال للهﷻولدينه ولكتابه ولأئمة المسلمين وللمسلمين عامة" فأولى بها الأقربون من الأهل والأصدقاء كما تقدم.

- أن تخلص له الرأي والمشورة:

وذلك بأن تشور عليه بما يصلحه من المشورة المخلصة التي هي مظنة الخير، لا التي توافق الهوى، وقد قال الله ﷻلنبيهﷺ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾وعن ابن عباسؓ قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وشاورهم في الأمر﴾قال رسول اللهﷺ: إن الله ورسوله غنيان عنها، ولكن جعلها رحمة لأمتي، فمن شاور منهم لم يعدم رشدا، ومن ترك المشورة لم يعدم غبنا، وقد قيل: المؤمن يعاشرك بالمعروف ويدلك على صلاح دينك ودنياك، والمنافق يعاشرك بالممادحة ويدلك على ما تشتهيه، والمعصوم من فرق بين الحالين، وعن سريا السقطي قال: من أخلاق الأبدال سلامة الصدر والنصيحة للإخوان.(١)

(١) آداب الصحبة للسلمي

- أن تسعى فيما يصلحه:

فكُلَّمَا كنت قادراً على تحقيق أو إيصال خير لِصاحبك فافعله من غير أن تنتظر أن يطلبه منك، هذا فضلاً عن أن يطلب منك ثم تتباطأ في تحقيقه، وإنما ينبغي أن تجدَّ وتجتهد في تحقيق رجائه فيك من غير تباطؤٍ أو تقصير، وقد قيل: إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكرْه ثانية فلعله أن يكون قد نسي، فإن لم يقضها فكبِّر عليه واقرأ"والموتى يبعثهم الله" وقضى ابن شبرمة حاجة كبيرة لبعض إخوانه فجاء بهدية فقال: ما هذا؟ قال: لما أسديته إليّ؛ فقال: خذ مالك-عافاك الله-وإذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها فتوضأ للصَّلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعده في الموتى.

- أن تؤثره على نفسك:

فقد قال الله ﷻ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(١) والآية حكاية عن موقف الأنصار مع المهاجرين، وقد ضربوا أروع المثل في الإيثار حتى امتدحهم الله ﷻ، وعن أبي إياس قال: إذا اصطحب الرجلان فتقدم أحدهما صاحبه فقد أساء الصُّحْبَةَ(٢) وقد ضرب السلف أعظم الأمثلة، وأروع المواقف في الإيثار، ومواقف الصحابة معه ﷺ محفوظة في غزوة أحد وفي غيرها، ومنهم من آثر إخوانه على نفسه حتى بالحياة الغالية، فقد حكي أنه سعي ببعضهم إلى بعض الخلفاء وقالوا إنهم يرفضون الشريعة فأخذ منهم طائفة فيهم أبو الحسين النوري فأمر بضرب أعناقهم، فبدر أبو الحسين إلى السياف ليضرب عنقه فقال له السياف: مالك بادرت بين أصحابك؟! فقال: أحببت أن أؤثر أصحابي بحياة هذه اللحظة وكان ذلك سبب نجاتهم في حكاية طويلة.

- أن تعينه على الطاعة وتتعاون معه عليها:

فقد قال ﷺ في الثناء على الأخوة في الدين «مَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْرًا رَزَقَهُ خَلِيلًا صَالِحًا إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ»(٣)

---

(١) سورة الحشر: آية ٩
(٢) مكارم الأخلاق٩٣
(٣) حديث من أراد الله به خيرا رزقه أخا صالحا إن نسي ذكره وان ذكر أعانه غريب بهذا اللفظ والمعروف أن ذلك في الأمير ورواه أبو داود من حديث عائشة إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق إن نسى ذكره و إن ذكر أعانه

- أن تكون مرآة له:

فلا توافقه على خطأ مجاملة له أو حياءً، وقد ورد: المؤمن مرآة أخيه، كما أن الصدق مع الصاحب مدعاة لإصلاح النفس وتهذيبها؛ ولذلك قيل: صديقك من صَدَقَك لا من صدّقك، فيري صاحبَه من نفسه ما لم يره، وليحرص على مراعاة عدم إحراجه، أو التسبب في ضيق نفسه، فيتجنب نصحه أمام الغير؛ فهذا أدعى للقبول والاستجابة.

- أن تدعوه وتلبي دعوته بل تفطر إذا كنت صائما:

فعن أبي سعيد الخدري قال صنعت لرسول الله ﷺ طعاماً فجاء هو وأصحابه فلما وضع الطعام قال رجل من القوم إني صائم فقال رسول الله ﷺ: دعاكم أخوكم وتكلف لكم أفطر ثم صم يوما مكانه إن شئت.

-أن تتواضع له:

فعلى الصَّاحب أن يتواضع لصاحبه ولا يتكبر عليه؛ قال ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(١) وقال﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾(٢) وقال رسول الله ﷺ: إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد(٣) وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: أربع لا يصبن إلا بعجب: الصمت وهو أول العبادة والتواضع وذكر الله وقلة الشيء.

وقال المبرد: النعمة التي لا يحسد عليها صاحبها التواضع، والبلاء الذي لا يرحم صاحبه عليه العجب.(٤)

- أن تكون له مكرماً محباً موقراً:

ومن دواعي الحب والإكرام: أن تقدره قدره وتنزله منزلته اللائقة به، فتعرف له فضله، وتعطيه قدره؛ فإنما يُعرف

الحديث ضعفه ابن عدي ولأبي عبد الرحمن السلمى في آداب الصحبة من حديث على من سعادة المرء أن يكون إخوانه صالحين.
(١) سورة المائدة: آية ٥٤
(٢) سورة الفتح:آية ٢٩
(٣) أخرجه أبو داود وابن ماجه ورجاله رجال الصحيح
(٤) آداب الصحبة للسلميّ ص٦٣: ٦٥.

الفضل لأهل الفضل -وو الفضل، قال إسحاق بن إبراهيم الحنظلي: جاء فتى إلى سفيان بن عيينة من خلفه فحياه وقال: يا سفيان حدثني، فالتفت سفيان فقال: يا فتى إنه من جهل أقدار الرجال فهو بقدر نفسه أجهل.

- أن تحب له ما تحب لنفسك:

فإذا كان كلُّ إنسان يتمنى لنفسه النجاح والصحة والغنى؛ فمن حق الأخوة والصُّحْبَة عليه أن يتمنى مثله لأخيه، فعن النبي ﷺ قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)(١) وعن أبي القاسم الحكيم قال: علم صفوة العشرة رضاك بمثله ممن يعاشرك، وقال أبو بكر بن عياش: اطلب الفضل بالأفعال تملكه فإن الصنيعة إليك كالصنيعة منك.(٢)

- أن تحسن استقباله بأن تهش في وجهه وتتبسط عند استقباله:

فطلاقة الوجه والاسترسال صفة تريح الصاحب، وتدفع الملل، وتحبب في دوام اللقاء، قال رسول الله ﷺ: (من أخلاق المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين البشاشة إذا تزاوروا والمصافحة والترحيب إذا التقوا) وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ:(إن الله ﷻ يحب الطلق الوجه ولا يحب العبوس) وعنه ﷺ قال:(تبسمك في وجه أخيك صدقة).

- أن تفسح له في المجلس:

وهو مما يجلب الود، ويقوي المحبة، وقد تقدم قول عمر في هذا الأدب، وقال الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾(٣)

- أن تدعوه بأحب الأسماء:

قال ﷻ:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٤)

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاريّ.
(٢) آداب الصحبة للسلميّ ص٥٧.
(٣) سورة المجادلة: آية ١١
(٤) سورة الحجرات: آية ١١

ودعوة الصَّاحب باسم يكرهه مما يزعج النفس، ويثير ضائقتها، ويجلب البغض والنزاع، وقد تقدم قول عمر في هذا، وفيه أن دعوة الصَّاحب بأحب أسمائه وألقابه مما يصفي الود، ويقوي علائق الحب.

- أن تحمد صنعه الجميل وتقدره، وتبرزه ولا تخفيه:

فتشكر لصاحبك حسن نيته وإن لم يقدر على العمل، عن النبي ﷺ قال:(نية المؤمن خير من عمله) وقال علي كرم الله وجهه: من لم يحمد أخاه على صدق النية لم يحمده على حسن الصنيعة.(١)

- أن تهدي إليه:

فإن الهدية من شأنها أن تعبر عن مكنون المودة؛ ولذلك قال ﷺ(تهادوا تحابوا).

- أن تدعو له:

فإن الدعاء للإخوان مما يقوي الود، ويبعد الحسد، ويدفع هاجس الشيطان عنهما، والدعاء للإخوان من سمات الصالحين، ودأب المهتدين، كما حكى الله تعالى عن سلفنا المهديين في قوله﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢) كما أن الدعاء للأخ في الله إنما يكون في حياته وبعد مماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله وكل متعلق به فتدعو له كما تدعو لنفسك ولا تفرق بين نفسك وبينه فإن دعاءك له دعاء لنفسك على التحقيق فقد قال ﷺ(إذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك ولك مثل ذلك)(٣) ودعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب من الدعوات المستجابة، وفي الحديث(دعوة الرجل لأخيه في ظهر الغيب لا ترد)(٤)

(١) آداب الصحبة للسلميّ ص .
(٢) سورة الحشر: آية ١٠
(٣) أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء وفي لفظ آخر يقول الله ﷻ بك أبدا يا عبدي حديث الدعاء للأخ بظهر الغيب.
(٤) أخرجه الدارقطني في الظل من حديث أبي الدرداء وهو عند مسلم إلا انه قال مستجابة مكان لا ترد.

- أن تكون وفياً له شاهداً وغائباً حيا وميتاً:

وذلك بأن تحفظ مودته وتصون عهده، وقد قيل: قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره وقت الحياة، روى عن النبي ﷺ أنه قال إن الله ﷻ يحب حفظ الود القديم، وروي أن امرأة دخلت على رسول الله ﷺ فأدناها فقيل له في ذلك؛ فقال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان.(١)

وقال محمد المغازلي: من أحب أن تدوم له المودة فليحفظ مودة إخوانه القدماء.

وأنشد الوجيهي لبعضهم:

ما ذاقت النفس على شهوة ألذ من حب صديق أمين
من فاته ود أخ صالح فذلك المغبون حق اليقين

وقال بعض الحكماء من السلف: عاشروا الناس معاشرة إن غبتم حنوا إليكم وإن متم بكوا عليكم.(٢)

- أن تذب عنه وتنتصر له:

قيل للجنيد: ما بال أصحابك يأكلون كثيرا؟ قال: لأنهم لا يشربون الخمر فيكون جوعهم أكثر. وقيل له: فما بالهم بهم قوة شهوة؟ قال: لأنهم لا يزنون ولا يدخلون تحت محظور. فقيل له: فما بالهم لا يطربون إذا سمعوا القرآن؟ قال: ما في القرآن ما يوجب الطرب، وكلام الحق نزل بأمر ونهى ووعد ووعيد؛ فهو يقهر. قيل له: فما بالهم لا يطربون عند القصائد؟ قال: لأنه مما عملت أيديهم. قيل له: فما بالهم لا يطربون عند الرباعيات؟ قال: لأنه كلام العشاق والمجانين. قيل: فما بالهم محرومين من الناس؟ قال: أنا لا أقول في هذا شيئا؛ ولكن قال أستاذنا محمد القصاب حين سئل عن ذلك: لثلاث خلال، إحداها: أن الله لا يرضى ما لهؤلاء لهؤلاء، والثانية: لا يرضى أن يجعل حسناتهم في صحائف هؤلاء، والثالثة: إنهم قوم لا ينوبون إلا الله فمنعهم عن كل شيء سواه وأفردهم له.(٣)

---

(١) أخرجه الحاكم من حديث عائشة وقال صحيح على شرط الشيخين
(٢) آداب الصحبة للسلمي ص٦٦، ٦٧.
(٣) آداب الصحبة للسلمي ص٧٥، ٧٦.

- أن ترد غيبته:

فإن رد غيبة صاحبك واجب عليك، وإلا لم تكن له وفياً، ورد غيبة المسلم عامة من الواجبات الشرعية، وإلا عُدَّ السامع لها مشاركا للمغتاب.

- أن لا يتغير حالك في التواضع مع أخيك وإن ارتفع شأنك:

فالترفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم، قال الشاعر:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

وأوصى بعض السلف ابنه فقال: يا بنيّ، لا تصحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قرب منك، وإن استغنيت عنه لم يطمع فيك، وإن علت مرتبته لم يرتفع عليك.

- إذا أردت سفرا أن تسلم على إخوانك وتزورهم:

والحكمة في هذا أنه ربما كان لأحدهم حاجة في وجهه الذي يتوجه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إذا سافر أحدكم فليسلم على إخوانه فإنهم يزيدونه بدعائهم إلى دعائه خيرا، وقد ورد في فضل السلام والمصافحة ما من شأنه أن يرغب المسلم، إذ قال ﷺ (ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا)(١)

- أن لا تخلف له وعداً:

وقد ورد في قصة موسى مع الشيخ الكبير في سورة القصص في قوله﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ورد تفسير قوله﴿ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾بحسن الصُحْبَة والوفاء بما قلت(٢) وقال النبي ﷺ: (علامة النفاق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان) وقال(لا تمار

---

(١) قال الترمذي حسن غريب من حديث أبي إسحاق عن البراء.
(٢) أخرجه الحاكم٢/ ٤٤١ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه،السنن الكبرى للبيهقي٦/ ١١٧

أخاك ولا تمازحه)[١] يقول الثوريّ: لا تعد أخاك موعدا فتخلفه فتستبدل المودة بغضا، وأنشد أبو نصر المروزي:

يا واعد الوعد الذي أخلفا ماالخلف من سيره أهل الوفا

ما كان ما أظهرت من ودنا إلا سراجا لاح ثم انطفا.[٢]

- أن تعامله على طريقته فلا تترفع عليه أو تتكبر:

فتصاحب كل واحد من إخوانك على قدر طريقته، وقد قيل: لا تجالس أحدا بغير طريقته فإن أردت لقاء الجاهل بالعالم واللاهي بالفقيه والعييّ بالبيان آذيت جليسك.

- أن لا تكثر من مخالفته ومجادلته:

فعليك أن تتحرز من كثرة الخلاف مع صاحبك، بل تتحرى موافقته فيما يرى ما لم يكن مخالفا للكتاب والسنة، ولا تكون مجادلا له؛ فإن الدنيا أقل خطرا من أن يخالف فيها أخ من الإخوان، قال يحيى بن معاذ: الدنيا بأجمعها لا تساوي غم ساعة فكيف بغم طول عمرك فيها وقطع إخوانك بسببها مع قليل نصيبك منها، وعن جويرة بن إسماعيل قال: دعوت الله أربعين سنة أن يعصمني من مخالفة الإخوان.[٣]

- أن تكون به رفيقاً رحيماً ليّناً حليماً:

فالرفقة مع الإخوان والرحمة بهم لازمة لدوام المودة وصفائها، قال في الإحياء: ومما وصف الله ﷻ به نبيه ﷺ من حسن العشرة وكريم الصُّحْبَة أن قال ﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ وقال ﷻ في وصف نبينا محمد ﷺ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفسكمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوف رَّحِيمٌ﴾[٤] وفي وصف حال المؤمنين بعضهم مع بعض، ومع الكافرين قال ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ منكمْ عَن دينه فسَوْف يَأْتِي اللهُ بقوْم يُحبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلةٍ عَلَى الْمُؤمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ﴾[٥] ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ الله

(١) رواه الترمذي
(٢) آداب الصحبة للسلميّ ص٥٣، ٥٤ .
(٣) آداب الصحبة للسلميّ ص٧٣: ٧٥.
(٤) سورة التوبة: آية ١٢٨
(٥) سورة المائدة: آية ٥٤

وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[١] إشارة إلى الشفقة والإكرام بين الإخوة في الله، وورد عن أبي عامر ﷺ أن رجلا سأل رسول الله ﷺ من أهل النار فقال سبحان الله لقد سألت عن عظيم كل شديد قعبري فقال: وما القعبري؟ قال: الشديد على العشيرة والشديد على الصاحب.[٢]

- أن لا تتسرع في الحكم عليه قبل أن تسمعه وتعذر إليه:

وقد ورد من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: (ألا أن بني آدم خلقوا على طبقات شتى) الحديث، وفيه: (ألا وإن منهم البطيء الغضب سريع الفيء ومنهم سريع الغضب سريع الفيء فتلك بتلك ألا وإن منهم سريع الغضب بطيء الفيء، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء، ألا وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء)[٣]

ولتراعِ في حالات الغضب بينكما هذه الآداب:

=أن لا تنفعل عليه أو تنهره: بل تكظم غيظك وتحلم به وتصبر عليه.

= أن لا ترفع صوتك عليه منفعلاً.

=أن لا تبالغ في تعظيم الأخطاء وتجسيمها أو تحميلها فوق ما تحتمل.

=أن لا يكون رد فعلك فوق ما يستأهل الفعل.

=أن لا تبالغ في غضبك منه فتجعل موقفاً عارضاً كفيلا بقطع ما بينكما من عهد ومودة، وتنسى معه كل حسن وجميل، قال الله ﷻ ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾ وروى الترمذي قال: عن أبي هريرة -أراه رفعه- قال: أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما[٤]

(١) سورة الفتح: آية ٢٩
(٢) الآحاد٥/٢٧٧
(٣) سنن الترمذي٤/ ٤٨٣، وقال أبو عيسى: وفي الباب عن حذيفة وأبي مريم وأبي زيد بن أخطب والمغيرة شعبة وذكروا أن النبي ﷺ حدثهم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة وهذا حديث حسن صحيح
(٤) مسند الشهاب مرفوعا١/ ٤٣٠، الأدب المفرد موقوفاً على عليّ، ص٤٤٧، سنن الترمذيّ ٤/ ٣٦٠ وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه، وقد روي هذا الحديث عن أيوب بإسناد غير هذا رواه=

وقيل: هو من أقوال عن علي بن أبي طالب ﷺ، وقال عمر ﷺ: لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا"وهو أن تحب تلف صاحبك مع هلاكك"وقيل لأبي سفيان بن حرب: ما بلغ بك من الشرف ما ترى؟ قال: ما خاصمت رجلا قط إلا جعلت للصلح بيني وبينه موضعا.

=أن لا تسمعه ما يكره من خبر أو غيره، كأن تواجهه بنقد فعله أو صفة فيه، فضلا عن ذكر هذا في غيبته، فعن أنس أن النبي ﷺ كانَ لا يواجه أحدا في وجهه بشيء يكرهه.(١)

=أن تترفق في مواجهته.

=أن لا تواجهه بخطئه:وإذا لزم الأمر مواجهته فلا تواجهه بكل ما بَدر منه ولا تكشف عن خطئه كله؛ من باب الكرم والشفقة وحفظ حيائه واتقاء حرجه وسقوط هيبته.

=أن لا تذكره بشيءٍ قدمته له على سبيل المنة:

فلا تمن بمعروفك عليه، عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كتب رجل إلى عبد الله بن جعفر رقعة فجعلها في ثني وسادته التي يتكئ عليها فقلب عبد الله الوسادة فبصر بالرقعة فقرأها وردها في موضعها وجعل مكانها كيسا فيه خمسة آلاف دينار فجاء الرجل فدخل عليه فقال: اقلب الرقعة وانظر تحتها فخذه فأخذ الرجل الكيس وخرج فأنشأ يقول:

زاد معروفك عرفا عظيما إنه عندك مستور حقير

تتناساه كأن لم تأته وهو عند الناس مشهور كثير

-**أن تحسن الظن به:** فكما يجب السكوت باللسان عن المساوئ فيجب السكوت بالقلب؛ وذلك بـ:

= ترك إساءة الظن؛ فسوء الظن غيبة بالقلب؛ وهو منهيٌ عنه أيضا، وحدّه: أن لا تحمل فعله على وجه فاسدٍ ما أمكن أن تحمله على وجه حسن.

= أن يحسن الظن به، ويحمل أمره كله على أفضل الوجوه، قال ﷻ ﴿لوْلا إذ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المُؤمِنونَ وَالمُؤمِناتُ بِأنفسِهِمْ

=الحسن بن أبي جعفر وهو حديث ضعيف أيضا بإسناد له عن علي عن النبي ﷺ الصحيح عن علي موقوف) وصححه الشيخ الألباني.

(١) أخرجه أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي في اليوم والليلة بسند ضعيف

خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١).

= وأما ما انكشف بيقين ومشاهدة وتأكد صدوره عنه فالواجب أن يحمل على سهو أو نسيان أو أي عذر ممكن.

قال ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (٢) وقال ﷺ (إن الله قد حرم على المؤمن من المؤمن دمه وماله وعرضه وأن يظن به ظن السوء)(٣) وقال ﷺ (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث).(٤)

وفي قصة الإفك تجلت أخلاق الصحابيَ الجليل أبي أيوب الأنصاري وزوجته، أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن بعض الأنصار (والواحدي وابن عساكر والحاكم بنحوه عن أفلح مولى أبي أيوب) أن امرأة أبي أيوب قالت له-حين قال أهل الإفك ما قالوا-ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة قال بلى وذلك الكذب أكنت أنت فاعلة ذلك يا أم أيوب قالت لا والله قال فعائشة والله خير منك وأطيب إنما هذا كذب وأفك باطل فلما نزل القرآن ذكر الله من قال من الفاحشة ما قال من أهل الإفك ثم قال﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين﴾أي كما قال أبو أيوب وصاحبته(٥) وفي رواية أن أبا أيوب الأنصاري ﷺ قال لأم أيوب أما ترين ما يقال فقالت لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرم رسول الله سوءا قال لا قالت ولو كنت بدل عائشة ما خنت رسول الله ﷺ فعائشة خير مني وصفوان خير منك(٦).

- **أن تحمل صنيعه وفعله كله على محمل مقبول ما أمكن:**

عن سعيد بن المسيب قال كتب إلى بعض إخواني من أصحاب

(١) سورة النور: آية ١٢
(٢) سورة الحجرات: آية ١٢
(٣) أخرجه الحاكم في التاريخ من حديث ابن عباس دون قوله وعرضه ورجاله ثقات إلا أن أبا على النيسابوري قال ليس هذا عندي من كلام النبي صلى الله عليه وسلم إنما هو عندي من كلام ابن عباس ولابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر ولمسلم من حديث أبي هريرة كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه
(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة
(٥) الدر المنثور - السيوطي ج٦/ص١٦٠
(٦) التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٣/ص١٥٥

رسول الله ﷺأن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يظهر منه ما يغلبك، وتلتمس له العذر فيما صدر منه، فعن عبد الله بن محمد بن منازل قال: المؤمن يطلب معاذير إخوانه والمنافق يطلب عثرات إخوانه، وعن حمدون القصار قال: إذا زل أخ من إخوانكم فاطلبوا له سبعين عذرا فإن لم تقبله قلوبكم فاعلموا أن المعيب أنفسكم حيث ظهر لمسلم سبعون عذرا فلم تقبله.(١)

= أن تقبل عذره صادقاً أو كاذباً:

عن النبي ﷺأنه قال:(من اعتذر إليه أخوه المسلم فلم يقبل عذره فعليه مثل إثم صاحب مكس).

وأنشد المطرفي لبعضهم

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا إن بر عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من أرضاك ظاهره وقد أجلك من يعصيك مستترا

وأنشد أبو الحسن بن أبي العباس البيهقي

قيل لي قد أساء إليك فلان ومقام الفتى على الذل عار
قلت قد جاءنا فأحدث عذرا وديـة الذنب الاعتـذار.(٢)

وقال عبد الله بن منازل: المؤمن يطلب عذر إخوانه، والمنافق يعتب عثراتهم.

=أن لا تهجره وتعتزله.

=وإذا هجرته فلا يكون هجرك له فوق ثلاث:

عن أبي أيوب الأنصاريرضي الله عنهقال: قال رسول الله ﷺ: لا يحل لمسلم أن بهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام.

=أن لا تكون كمن إذا خاصم فجر: فتظهر عيبه، وتفشي سره، وتخون عهده، إنما يجب عليك أن لا تنشر سره، بل تحفظه وتصونه:فعن النبي ﷺأنه قال:(إنما يتجالس المتجالسان

(١) آداب الصحبة للسلميّ.
(٢) آداب الصحبة للسلميّ ص١٠٠، ١٠١

بالأمانة، لا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره)(١)

وقال بعض الحكماء: قلوب الأحرار قبور الأسرار، وأنشد المطرفي لبعضهم:

ليس الكريم الذي إن زل صاحبه بث الذي كان من أسراره علما
إن الكريم الذي تبقى مودته ويحفظ السّر إن صافا وإن صرما.(٢)

=ولا تكشف عورته:

فإذا كان يحب أن ترى صفاته الطيبة، وتستر معايبه، ولا يعرف عنه السوء؛ فعليه أن يظهر فضل أخيه ويتحدث عن مناقبه، ويخفي عيبه ويتكتمه، وفي الحديث(من ستر عوره أخيه ستره الله ﷻ في الدنيا الآخرة).(٣)

ولأبي حامد الغزاليّ في الإحياء كلاما جميلا في هذا الأدب، يقول: فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين ويكفيك تنبيها على كمال الرتبة في ستر القبيح و إظهار الجميل أن الله ﷻ وصف به في الدعاء فقيل يا من أظهر الجميل وستر القبيح و المرضى عند الله من تخلق بأخلاقه فإنه ستار العيوب وغفار الذنوب ومتجاوز عن العبيد فكيف لا تتجاوز أنت عمن هو مثلك أو فوقك وما هو بكل حال عبدك ولا مخلوقك وقد قال عيسى عليه السلامللحواريين كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائما وقد كشف الريح ثوبه عنه قالوا نستره ونغطيه قال بل تكشفون عورته قالوا سبحان الله من يفعل هذا فقال أحدكم يسمع بالكلمة في أخيه فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها واعلم أنه لا يتم إيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله

(١) رواه الحاكم
(٢) آداب الصحبة للسلميّ ص٧٠، ٧١.
(٣) الحديث أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عباس وقال يوم القيامة ولم يقل في الدنيا ولمسلم من حديث أبي هريرة من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة وللشيخين من حديث ابن عمر من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة وفي خبر آخر فكأنما أحيا موءودة حديث فكأنما أحيا موءودة من قبرها أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم من حديث عقبة بن عامر من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موءودة زاد الحاكم من قبرها وقال صحيح الإسناد.

به ولا شك انه ينتظر منه ستر العورة و السكوت على المساوي والعيوب ولو ظهر له منه نقيض ما ينتظره اشتد عليه غيظه وغضبه فما أبعده إذا كان ينتظر منه ما لا يضمره له ولا يعزم عليه لأجله وويل له في نص كتاب الله ﷻ حيث قال﴿ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ [١] وكل من يلتمس من الإنصاف أكثر مما تسمح به نفسه فهو داخل تحت مقتضى هذه الآية، وستر عيب الصَّاحب أو الجار إذا انكشف شيء منه واجب، وإفشاؤه وكشفه فضح له وإيذاء عظيم، فما بالنا بتتبع العورات، وقد قال ﷺ يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان في جوف بيته.[٢]

=ولا تقبل فيه وشاية واشٍ أو نميمة نمام:

قال الخليل بن أحمد: من نم إليك نم عليك ومن أخبرك بخبر غيرك أخبر عنك غيرك بخبرك

=ولا تسخر منه أو تنتقصه أو تستخف به:

فقد نهى الله عن السخرية فقال:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٣]

وعن ابن المبارك قال:من استخف بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخف بالأمراء ذهبت دنياه، ومن استخف بالإخوة ذهبت مروءته[٤] ومهما رأى الفضل لنفسه فقد احتقر أخاه وهذا في عموم المسلمين مذموم قال ﷺ(بحسب المؤمن

(١) سورة المطففين: الآيات ١، ٢، ٣ .
(٢) أخرجه أبو داود من حديث أبي برزة بإسناد جيد وللترمذي من حديث ابن عمر وحسنه
(٣) سورة الحجرات: آية ١١
(٤) آداب الصحبة للسلميّ ص٦٢.
(٥) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

من الشر أن يحقر أخاه المسلم).[١]

=ولا تتتبع عورته أو تتجسس على حاله:

فالتحسس والتجسس مردهما إلى سوء الظن بالإخوان، وقد قال ﷺ(لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا)[٢] والتجسس في تطلع الأخبار و التحسس بالمراقبة بالعين.

=ولا تؤذه بشيءٍ وإن آذاك:

روى عن النبي ﷺ أنه قال:(إن الله ﷻ يكره أذى المؤمنين) وقال الربيع بن خثيم: الناس رجلان مؤمن فلا تؤذه، وجاهل فلا تجاهله.[٣]

=ولا تنس معروفه وفضله، ومواقفه الكريمة معك.

وتعفو عن زلاته:

فالصفح عن عثرات الإخوان والتجاوز عنها، وترك تأنيبهم عليها من حسن العشرة وطيب الخصال؛ فإن الله ﷻ قال﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾[٤] وقال﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[٥] وقال ﷻ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[٦] جاء في التفسير: أن لا يكون فيه تقريع ولا تأنيب ولا معاتبة، وقيل أيضا: وهو رضا بلا عتاب.

وعن الفضيل بن عياض قال: الفتوة العفو عن عثرات الإخوان.

وعن الأصمعي قال: قال أعرابي: تناسَ مساوئ الإخوان يدم لك ودهم.[٧]

=وتغمض عينك عن بعض ما ترى:

فالعاقل ينبغي أن يفطن أن من شأن الصُّحْبَة تقتضي الملازمة

(٦) متفق عليه من حديث أبي هريرة
(٣) آداب الصحبة للسلميّ ص٥٥، ٥٦.
(٤) سورة النور: آية ٢٢
(٥) سورة البقرة: آية ٢٣٧
(٦) سورة الحجر: آية٨٥
(٧) آداب الصحبة للسلميّ.

بين الصاحبين؛ وهذه الملازمة تستلزم ظهور بعض الاختلافات في الرأي أو في الطبع؛ فلا يجعل تلك الاختلافات سببا في نشوء عداوة أو حقد، فعن هلال بن العلاء قال: جعلت على نفسي أن لا أكافئ أحدا بسوء ولا عقوق، وذهب إلى هذه الأبيات:

لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسي من هم العداوات
إني أحيي عدوى عند رؤيته لأدفع الشر عني بالتحيات
وأظهر البشر للإنسان أبغضه كأنه قد ملأ قلبي محبات

وأنشد عبيدالمدائنيّ:

ومن لم يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
ومن يتبع جاهدا كل عثرة يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب.(١)

وأنشد ثعلب:

أغمض عيني عن صديقي متعمدا كأني بما يأتي من الأمر جاهل
وما بي جهل غير أن خليقتي تطيق احتمال الكره فيما يحاول.(٢)

=أن لا تقطع صداقتك له لأقل شيء:

والأصل أن لا يُصَاحَبَ إنسانٌ إلا بعد أن يخبر ويعرف؛ فإذا قبل دينه وخلقه فلا تقطع صداقته، ولا يرد إلا إذا ضعف دينه، وفسد خلقه؛ بل حتى إذا ألمت به ملمة في دينه وخلقه ينبغي أن لا يهمل إلا إذا استفرغت معه وسائل الإصلاح والنصح بإحسان ورفق؛ فقد تكون سقطة مؤقتة ما يلبث أن يئوب بعدها إلى رشده، ويعود إلى صوابه؛ وإذا كان للمخطئ حق الدعوة ولو كان كافرا؛ كما أمر الله ﷻ موسى عليه السلام أن يدعو فرعون برفق بلين فقال ﴿فقولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لعَلَّهُ يَتَذكرُ أَوْ يَخْشى﴾(٣) فأولى بالدعوة الصَّاحب المخطئ، وإذا كان على الأخ أن لا يهمل أخاه أيام حاجته وفقره؛ ففقر الدين أشد من فقر المال، قال الغزاليّ: فإن أصابته جائحة وألمت به آفة افتقر بسببها في دينه فينبغي أن يراقب ويراعى

(١) آداب الصحبة للسلميّ ص٥٩، ٦٠.
(٢) آداب الصحبة للسلمي ص٦١.
(٣) سورة طه: آية ٤٤

ولا يهمل، بل لا يزال يتلطف به ليعان على الخلاص من تلك الوقعة التي ألمت به.

وقد ذكر الله ﷻ مثلاً لمن يحيد ويرتد عن جادة الطريق، بينما إخوانه في الله ﷻ وأصحابه الصالحين لم يتخلوا عنه ولم يتركوه؛ بل ما زالوا يدعونه ويحرصون على عودته إلى طريق الحق، قال ﷻ ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١)

قيل: يحتمل أن يريد أن لهذا المستهوي أصحاب وهم رفقة على الطريق الذي خرج منه يدعونه إلى الهدى أي إلى أن يهدوه إلى الطريق يقولون له ائتنا وهو قد تاه عنهم وبعد فلا يجيبهم، فيشبه بالأصحاب على هذا المؤمنون الذين يدعون من ارتد إلى الرجوع إلى الهدى، وهذا كله تمثيل لمن ضل في الدين عن الهدى وهو يدعى إلى الإسلام فلا يجيب، وهذا تأويل مجاهد وابن عباس، وهو القول المختار في تفسير الآية الكريمة.

وقيل: يحتمل أن يريد أن لذلك الكافر الضال أصحاب، أي من الشياطين الدعاة يدعونه إلى ذلك الضلال ويسمونه بأنه هو الهدى بزعمهم وإنما يوهمونه فيشبه بالأصحاب على هذا الكفرة الذين يثبتون من ارتد عن الإسلام على ارتداده وروي هذا التأويل عن ابن عباس أيضا وهذا بعيد والقول الصحيح هو الأول كما تقدم.

وقيل: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصّدِيق حين كان أبوه يدعوه إلى الإسلام.(٢)

(١) سورة الأنعام، آية:٧١، ومعنى الآية:(قل أندعوا) أي أنعبد (من دون الله ما لا ينفعنا) بعبادته (ولا يضرنا) بتركها وهو الأصنام (ونرد على أعقابنا) نرجع مشركين (بعد إذ هدانا الله) إلى الإسلام (كالذي استهوته) أضلته الشياطين (في الأرض حيران) متحيرا لا يدري أين يذهب حال من الهاء (له أصحاب) رفقة (يدعونه إلى الهدى) أي ليهدوه الطريق يقولون له (ائتنا فلا يجيبهم فيهلك والاستفهام للإنكار وجملة التشبيه حال من ضمير نرد (قل إن هدى الله) الذي هو الإسلام (هو الهدى) وما عداه ضلال (وأمرنا لنسلم) أي بأن نسلم (لرب العالمين) .(تفسير الجلالين ج١/ص١٧٤)
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل للكلبي ج٢/ص١٣، التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٣/ص٢٥، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ج٢/ص٣٠٧

فالأخوة عُدة للنائبات وحوادث الزمان، وهذا من أشد النوائب، والفاجر إذا صحب تقيا وهو ينظر إلى خوفه ومداومته فسيرجع على قرب ويستحي من الإصرار، بل الكسلان يصحب الحريص في العمل فيحرص حياءً منه، قال جعفر بن سليمان: مهما فترت في العمل نظرت إلى محمد بن واسع وإقباله على الطاعة فيرجع إليَّ نشاطي في العبادة وفارقني الكسل وعملت عليه أسبوعا.

وقال الله ﷻ لنبيه ﷺ في عشيرته﴿فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾ولم يقل: إني بريء منكم؛ مراعاة لحق القرابة ولحمة النسب، وإلى هذا أشار أبو الدرداء لما قيل له: ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا؟ فقال: إنما أبغض عمله وإلا فهو أخي، وأخوة الدين أوكد من أخوة القرابة.

قال محمد بن إسماعيل الْبُخَارِيّ: قال الخليل بن أحمد: لا تواصلن صديقا إلا بعد تجربة؛ وإذا صادقته فلا تقاطعه ؛ فمؤمن بلا صديق خير من مؤمن كثير الأعداء، قال حمدان القصار: أقبلوا على إخوانكم بالإيمان وردوهم بالكفر فإن الله ﷻ أوقع ما بين هذين في مشيئته فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾(١)

إن على المؤمن إذا ظفر بأخ أو صديق أن لا يضيعه، ويعلم أن الأخوة والصداقة عزيزة، وعن هلال بن العلاء الرقي: كتب فيلسوف إلى من في درجته أن اكتب إلى بشيء ينفعني في عمري، فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم استوحش من لا إخوان له وفرط من قصر في طلبهم وأشد تفريطا من وجد واحدا منهم وضيعة بعد وجده إياه ولو وجد أن الكبريت الأحمر أيسر من وجدان أخ أو صديق موافق وإني لفي طلبهم منذ خمسين سنة فما ظفرت إلا بنصف أخ وتمرد علي وانقلب واعلم أن الناس ثلاث معارف وأصدقاء وإخوان فالمعارف بين الناس كثير والأصدقاء عزيزة والأخ قل ما يوجد.

(١) (النساء: من الآية٤٨)

- أن تترفق به في الدعوة والتوجيه:

فلا تزجره إذا أخطأ، ولا تتعالَ عليه بشيء، ولتتأس في حاله بحاله ﷺ مع أصحابه، فمن مواقف الرفق مع الأصحاب موقفه من حاطب بن أبي بلتعة؛ فإنه كتب إلى أهل مكة أن رسول الله ﷺ يتجهز للفتح ويريد أن يغزوكم فخذوا حذركم ثم أرسل ذلك الكتاب مع امرأة مولاة لبني هاشم يقال لها سارة جاءت إلى النبي ﷺ من مكة إلى المدينة فقال ﷺ:أمسلمة جئت؟ قالت: لا. قال: أمهاجرة جئت؟ قالت: لا. قال: فما جاء بك؟ قالت: قد ذهب الموالي يوم بدر-أي قتلوا في ذلك اليوم- فاحتجت حاجة شديدة؛ فحث عليها بني المطلب فكسوها وحملوها وزودوها، فأتاها حاطب وأعطاها عشرة دنانير وكساها بردا واستحملها ذلك الكتاب إلى أهل مكة، فخرجت سائرة؛ فأطلع الله الرسول ﷺ على ذلك؛ فبعث عليا وعمر وعمارا وطلحة والزبير خلفها وهم فرسان؛ فأدركوها وسألوها عن ذلك فأنكرت وحلفت؛ فقال عليّ:والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله، وسل سيفه؛ فأخرجته من عقاص شعرها؛ فجاءوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ على حاطب فاعترف وقال: إن لي بمكة أهلا ومالا فأردت أن أتقرب منهم وقد علمت أن الله ﷻ ينزل بأسه عليهم؛ فصدقه وقبل عذره؛ فقال عمرُ: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ:ما يدريك يا عمر لعل الله تعالى قد اطلع على أهل بدر فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؛ ففاضت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم فنزلت﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ (١)

- أن تكون المبادئ له بالسلام:

قال عمر بن الخطاب ﷺ: ثلاث يصفين لك ود أخيك أن تسلم عليه إذا لقيته وتوسع له في المجلس وتدعوه بأحب أسمائه إليه.(٢)

وفي الختام، فإن من جملة حقوق الصُّحْبَة وآدابها:صدق المودة، وصفاء المحبة؛فإن العشرة لا تتم إلا

(١) سورة الممتحنة: آية ١
(٢) آداب الصحبة للسلميّ ص٥٨.

بهما، وبشاشة الوجه، ولطف اللسان، وسعة القلب، وبسط اليد، وكظم الغيظ، وإسقاط الكبر، وملازمة الحرمة، وإظهار الفرح بما رزق من عشيرته وإخوانه.

نماذج الصُّحْبَة

تنقسم هذه النماذج إلى قسمين بحسب انقسام الصُّحْبَة نفسها إلى:

- صحبة في الخير
- وصحبة في الشر

تضمن القُرْآن الكَريم نماذج لصحبة الخير، ونماذج لصحبة الشر، فعرض في هذه النماذج صورة واضحة للصحبة بنوعيها بمثال واقعي في مواقف حية؛لتتحقق العبرة والعظة، ويكون الدرسُ المقصود أبلغ، والهدف المرجوّ تحقيقه أوقع، وهذا بيان لبعض تلك النماذج كما جاءت في القُرْآن الكريم.

أولاً:نماذج لصحبة الخير

- الرَّسُول وصاحبه في الغار.
- الصَّاحب الصالح في قصة صَاحب الجنتين.
- أصحَاب الكهْف الفتيَة المؤمنون.
- صَاحب الخضر.
- الصَّاحب الواعظ في قصة أصحاب الجنة.
- صَاحب السجن الداعي إلى الله.
- أصحَاب موسى.

الرسول ﷺ وصاحبه في الغار

لعل من أبرز النماذج الصادق

ولهذه الصُّحْبَة، صحبة الصديق أبي بكر الذي كان له من الأخوة أعلى مراتبها، ومن صحبته للنبيﷺ أعلى مراتبها، وقد

قص القُرْآن الكَريم موقفاً من هذه المواقف التي يظهر فيها دور الصاحب مع صاحبه في المواقف الصعبة، فالصاحب الأعظم يرى صاحبه حزينا فيطمئنه ويزيل عنه أسباب القلق، ويمنحه أسباب الثقة واليقين، كما جاء في قوله ﷻ:

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

وهذا أعلى النماذج للصحبة، ويستفاد منه أن من حق الصاحب على صاحبه حين يراه قلقا أن لا يسخر منه، أو يعمل على زيادة قلقه؛بل عليه أن يذكره في هذا الموقف بما ينفعه.

قصة صاحب الجنتين

هذا هو الصاحب الصالح في سورة الكهف، نراه يحذر صاحبه من خطر موقفه، فحين يسمعه وهو:

- يفاخر بما أوتي، ويتعالى به على صاحبه.
- يظن أن جنته خالدة لا تفنى.
- يتشكك في القيامة.

قال ﷻ ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا..﴾ (١)

(١) سورة الكهف:٣٢:٤٢

دور الصاحب الصالح في هذه القصة:

لم يقف صاحبه منه موقفاً سلبياً يكتفي فيه بأن يحزن ويغضب، بل يصارحه في جد بلا مواربة أو مهادنة، فهذا نموذج من النماذج الرائعة التي يستفيد منها المسلم، ويتعلم:كيف يتعامل مع صاحبه إذا هو زاغ وحاد عن طريق الحق.

قال صاحب الظلال:فأما صاحبه الفقير الذي لا مال له ولا نفر، ولا جنة عنده ولا ثمر..فإنه معتز بما هو أبقى وأعلى، معتز بعقيدته وإيمانه، معتز بالله الذي تعنو له الجباه؛فهو:

- يجبه صاحبه المتبطر المغرور منكرا عليه بطره وكبره.
- يذكره بمنشئه المهين من ماء وطين.
- يوجهه إلى الأدب الواجب في حق المنعم.
- ينذره عاقبة البطر والكبر.
- ويرجو عند ربه ما هو خير من الجنة والثمار.

قصة أصحاب الكهف

إنها صحبة رائعة لفتية آمنوا بالله، إنها صحبة في الله ولله، لا صحبة في شر، أو لأجل الفساد واللهو المحرم، توحدت عقيدتهم، وهدفهم وغايتهم؛لذلك لم يختلفوا في الوسيلة التي يحمون بها أنفسهم من بطش الظالمين؛فاتفقوا على اعتزال قومهم، ولجئوا إلى الكهف؛فأواهم الله، قال ﷻ:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا..نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ

رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾.

ففي هذه القصة من الدروس البليغة ما لا يخفى، ومنها:

- التعاون على البر والتقوى والإيمان.
- الثبات على الحق.
- تحمل الأذى في سبيل الله.
- إيثار أمر الله على الدنيا.

قال صاحب الظلال:﴿وربطنا على قلوبهم إذ قاموا﴾ والقيام حركة تدل على العزم والثبات، ﴿فقالوا ربنا رب السماوات والأرض﴾فهو رب هذا الكون كله﴿لن ندعو من دونه إلها﴾فهو واحد بلا شريك﴿لقد قلنا إذن شططا﴾وتجاوزنا الحق وحدنا عن الصواب، ثم يلتفتون إلى ما عليه قومهم فيستنكرونه، ويستنكرون المنهج الذي يسلكونه في تكوين العقيدة:﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة.لولا يأتون عليهم بسلطان بين﴾فهذا هو طريق الاعتقاد:أن يكون للإنسان دليل قوي يستند إليه، وبرهان له سلطان على النفوس والعقول، وإلا فهو الكذب الشنيع، لأنه الكذب على الله:﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾وإلى هنا يبدو موقف الفتية واضحا صريحا حاسما، لا تردد فيه ولا تلعثم، إنهم فتية، أشداء في أجسامهم، أشداء في إيمانهم، أشداء في استنكار ما عليه قومهم.. ولقد تبين الطريقان، واختلف المنهجان؛فلا سبيل إلى الالتقاء،

ولا للمشاركة في الحياة، ولا بد من الفرار بالعقيدة ؛ إنهم ليسوا رسلا إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها، ويتلقوا ما يتلقاه الرسل، إنما هم فتية تبين لهم الهدى في وسط ظالم كافر، ولا حياة لهم في هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها، وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم ويراوردهم، ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيل التقية ويخفوا عبادتهم لله..والأرجح أن أمرهم قد كشف؛فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله، وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة، وقد أجمعوا أمرهم فهم يتناجون بينهم:وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون - إلا الله - فأووا إلى الكهف، ينشر لكم ربكم من رحمته، ويهيئ لكم من أمركم مرفقا..وهنا ينكشف العجب في شأن القلوب المؤمنة..فهؤلاء الفتية الذين

يعتزلون قومهم، ويهجرون ديارهم، ويفارقون أهلهم، ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة، هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم، هؤلاء يستروحون رحمة الله، ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة، ﴿ينشر لكم ربكم من رحمته﴾ ولفظة﴿ينشر﴾تلقي ظلال السعة والبحبوحة والانفساح؛فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها وتمتد ظلالها، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء..إن الحدود الضيقة لتنزاح، وإن الجدران الصلدة لترق، وإن الوحشة الموغلة لتشف، فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق، إنه الإيمان..وما قيمة الظواهر؟ وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التي تعارف عليها الناس في حياتهم الأرضية؟ إن هنالك عالما آخر في جنبات القلب المغمور بالإيمان، المأنوس بالرحمن، عالما تظلله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان.

صاحب الخضر

وهذا هو صاحب الخضر موسى يدعو الله أن يرزقه مصاحبة الخضر؛ليتعلم منه ويستفيد، وموسى نبي ورسول، بل هو من أولي العزم من الرسل، بل هو الكليم﴿وكلم الله موسى تكليما﴾وكفى موسى علما أنه نبي يوحى إليه، ثم كفاه وكفام أن الله ﷻ كلمه تكليما، وأنزل عليه كتابه التوراة﴿فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار﴾

﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين﴾

ومع كل هذا الفضل والعلم يسأل الله ﷻ أن يمن عليه بصحبة الخضر ليزداد علما؛وفي هذه القصة تظهر آداب صحبة المتعلم للعالم؛حيث:

- يصر موسى على الخروج والسفر لملاقاة الخضر:﴿ وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا﴾
- يستأذن موسى الخضر في صحبته للتعلم:﴿ قال له

موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا﴾

- يرفض الخضر صحبة موسى لعلمه بعدم استطاعته على تحمل ما يرى:﴿ قال إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا﴾
- فيعلن موسى عن كمال امتثاله وإذعانه:﴿ قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا﴾
- فيشترط عليه الخضر بعد كل هذا أن لا يسأل عن أي شيء:﴿قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا﴾

ويسير موسى مع صاحبه، وهو في المرة الأولى يخالف شرطه، ويعتذر له بالنسيان؛فقد كانت الأولى منه عليه السلام نسيانا، ثم يخالف الشرط مرة ثانية؛فيلتزم إن هو سأل مرة أخرى أن يحرم صحبته، ويكون هذا آخر تلك الرحلة العظيمة﴿قال هذا فراق بيني وبينك﴾.

دعوة السجين لصاحبيه في السجن

وهذا هو صاحب السجن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم:يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم يدخل السجن ظلما؛ولكنه بالرغم من مرارة الحبس، وضيق السجن على المظلوم يجد نفسه صاحبا لسجينين، فلا يضيع الفرصة في دعوتهما إلى الله، يغتنم هذا الوقت وتلك الصحبة الاضطرارية، ويغتنم نعم الله وهباته إليه في الدعوة إليه؛لا افتخارا على السجينين، ولا رياء؛ففر لهم الرؤى، وبين لهم مصدر هذا العلم؛حتى يتسنى له بعد أن يكون كلامه ودعوته إليهما ذات قبول؛حتى يفجر القضية العظمى، وهي التوحيد:﴿ ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون يا

صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾

الصاحب الواعظ في قصة أصحاب الجنة

وهذا الصاحب المعتدل ينصح إخوته ألا ينفذوا ما عزموا عليه من شر بحرمان الفقراء والمساكين من حقهم في ثمار الجنة، ولكن -أسفا -لم يستجب له، ومن لفتات القرآن الكريم البليغة أنه لم يعرض لنصحه في وقته، لم يحكه لنا؛لأنه لم يفد أصلا، ولم تكن له ثمرة مع إخوته؛حيث أهملوه، وتجاهلوا نصحه؛وإنما ذكر بنصحه عند لومه لهم على عدم طاعته﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ وفيها درس بليغ، أن على الإنسان الصالح ألا يترك النصح ولو توقع عدم الاستجابة، وأن يغتنم النصح في المواقف ولو كان على خلاف ما يهوى الآخرون؛لئلا يفضي به تركه إلى الندم.

قال ﷻ:﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَن لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

أصحاب موسى عليه السلام

وها هم أصحاب النبي العظيم موسى، أصابهم العجز البشري؛ففزعوا؛حيث رأوا العدوّ الجبار فرعون وجنده يقتربون منهم؛فارتاعوا وصرخوا:﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ

أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء :٦١]ولكن الصاحب العظيم المؤمن الواثق، النبي الموقن يرد عليهم بلسان الثبات والإيمان﴿ قَالَ كَلا﴾ لم؟ ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء :٦٢] فما أعظم صحبة الأخيار الأبرار الصالحين المؤمنين، تنفع أصحابها في أحلك المواقف، وأصعب الأحوال.

قال ﷻ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

ثانياً:نماذج لصحبة الشر

- صاحب الجنتين المغرور في سورة الكهف
- القرين الضال في سورة الصّافّات
- أصحاب الجنة الجاحدون في سورة القلم
- صاحب الناقة الأشقى في قصة صالح

صاحب الجنتين في سورة الكهف

أما صاحب الجنتين في سورة الكهف فقد تقدم الحديث عن صاحبه الصالح وعنه بالتبع، بما يغني هنا عن الإعادة، غير أنا نركز هنا على أمر آخر، وهو:ماذا عسى أن يكون الحال والمآل لو ضعف الصاحب الآخر أمام بريق الغنى، ومنطق التعالي والاستكبار، ماذا عسى لو تسلل الشيطان إليه ونجح في الإضلال، ماذا عساه لو ضعفت نفسه أمام هذا السيل من الجحود والنكران؟! أقول:لقد كان الحال أن يهلك هذا الصاحب ويغتر بقدرات وطاقات وإمكانات صاحبه، لا سيما لو كانت المجاملة ستفضي إلى النفع المادي والعطاءات.

والمقصود من هذه الافتراضات الحذر من صحبة السوء؛لأنه

ليس كل أحد يسلم من التأثر في موقف كهذا، والمعصوم من عصم الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

القرين الضال في سورة الصّافّات

أما الصاحب في سورة الصافات فهو قرين ملازم لا يكاد ينفك عن صاحبه الصالح؛ ثم هو ينكر عليه إيمانه وتصديقه بالبعث بعد الموت﴿يقول أئنكَ لمنَ المُصدّقِينَ﴾ ولقد كاد بأسلوب التشكيك هذا ونحوه أن يَضلَ صاحبه﴿قال تالله إن كدت لتردين﴾ فليحذر القرناء من قرين السوء؛فإنه وإن لم يَضل، فلقد كاد﴿ولولا نعمَةُ ربّي لكنت منَ المُحْضَرِينَ﴾

ولئن كان هذا قد نجا من إضلال قرينه فقد يضل غيره ويغوى، وهذا من أعظم الدروس في اتقاء قرين السوء..وليتنا نقارن بين القرين هنا والأخ الناصح لإخوته في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم، لقد كان موقف القرين هنا في سورة الصافات وموقف الصاحب هناك في قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف قويا متماسكا، أما في سورة القلم، فقد غلب الأخ الخيِّر الناصح على أمره، وسار مع الركب؛فناله ما نال إخوته من الحرمان والعقوبة، حسبما يذكر آنفا.

قال صاحب الظلال:وإذا أحد الناجين الفائزين يستعيد ماضيه، ويقص على إخوانه طرفا مما وقع له:﴿قال قائل منهم:إني كان لي قرين.يقول:أإنك لمن المصدقين.أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمدينون﴾؟ لقد كان صاحبه وقرينه ذاك يكذب باليوم الآخر، ويسائله في دهشة:أهو من المصدقين بأنهم مبعوثون فمحاسبون بعد إذ هم تراب وعظام ؟! وبينما هو ماض في قصته يعرضها في سمره مع إخوانه، يخطر له أن يتفقد صاحبه وقرينه ذاك ليعرف مصيره، وهو يعرف بطبيعة الحال أنه قد صار إلى الجحيم، فيتطلع ويدعو إخوانه إلى التطلع معه:"قال:هل أنتم مطلعون؟ فاطلع فرآه في سواء الجحيم"عندئذ يتوجه إلى قرينه الذي وجده في وسط الجحيم.يتوجه إليه ليقول له:يا هذا.لقد كدت توردني موارد الردى بوسوستك.لولا أن الله قد أنعم علي، فعصمني من الاستماع إليك:"قال تالله إن كدت لتردين.ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين" أي لكنت من الذين يساقون إلى الموقف وهم كارهون.

وتثير رؤيته لقرينه في سواء الجحيم شعوره بجزالة النعمة التي نالها هو وإخوانه من عباد الله المخلصين.فيحب أن يؤكدها ويستعرضها، ويطمئن إلى دوامها، تلذذا بها وزيادة في المتاع بها فيقول:"أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى؟ وما نحن بمعذبين؟ إن هذا لهو الفوز العظيم"وهنا يرد تعليق يوقظ القلوب ويوجهها إلى العمل والتسابق لمثل هذا المصير:لمثل هذا النعيم الذي لا يدركه فوت، ولا يخشى عليه من نفاد، ولا يعقبه موت، ولا يتهدده العذاب.لمثل هذا فليعمل العاملون..فهذا هو الذي يستحق الاحتفال.وما عداه مما ينفق فيه الناس أعمارهم على الأرض زهيد زهيد حين يقاس إلى هذا الخلود.

قال ابن عطية:أخبر الله ﷻ عن قول قائل من أهل الجنة في قصته، وهو مثال لكل من له قرين سوء، يعطي هذا المثال التحفظ من قرناء السوء، واستشعار معصيتهم.

واختلف في هذين القرينين:

- قال ابن عباس وغيره:كان هذان من البشر مؤمن وكافر.
- وقالت فرقة:هما اللذان ذكر الله ﷻ في قوله﴿يا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا﴾
- وقال مجاهد كان إنسيا وجنيا من الشياطين الكفرة.(١)

أصحاب الجنة في سورة القلم

أما أصحاب الجنة في سورة القلم فقد غلبوا بقوتهم وعددهم وعزيمتهم على الشر منطق الحق المبين، فلم يكترثوا بنصح أخيهم الصالح ووعظه، ومضوا كأن لم يسمعوا شيئا، وهذا ما يفيده سكوت القرآن عن هذا الوعظ في حينه، وعدم التنبيه عليه إلا عند الملام آخر الأمر، ويبدو أن أخاهم الصالح هذا مضى معهم وغلب على أمره منهم؛فناله ما نالهم وإن لم يك راضيا، وهذه من أخطر مخاطر صحبة الشر.

قال صاحب الظلال:وبعد أن حاقت بهم عاقبة المكر والتبييت، وعاقبة البطر والمنع، يتقدم أوسطهم وأعقلهم وأصلحهم، ويبدو أنه كان له رأي غير رأيهم؛ولكنه تابعهم عندما خالفوه وهو فريد في رأيه، ولم يصر على الحق الذي

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ج٤/ص٤٧٣

رآه فناله الحرمان دَما نالهم، ولكنه يذكرهم ما كان من نصحه وتوجيهه:﴿ قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾؟! والآن فقط يسمعون للناصح بعد فوات الأوان﴿قالوا سبحان ربنا..﴾.

أشقى القوم قاتل الناقة

وأما أشقى القوم قاتل الناقة فقد هلك أصحابه بفعلته النكراء، بالرغم من أنهم لم يقتلوها معه؛لكنهم كانوا راضين بفعلِهِ؛ولذلك نسب العقر إليهم، وألصقه بهم في قوله ﷻ ﴿فكذبوهُ فعقروها فدمْدَمَ عليْهِمْ ربُّهُم بذنبهمْ فسوَّاها﴾ (١) وهذا من شؤم الصاحب الجريء على الله ﷻ لما طلبوا إليه وأشاروا عليه بادر بالجريمة ﴿فنادَوْا صاحِبَهُمْ فتعاطى فعقرَ ۞ فكيْفَ كانَ عذابي ونذر ۞ إنا أرْسلْنا عليْهِمْ صيْحَةً واحِدَةً فكانوا كهَشيمِ المُحتَظِر﴾ (٢) فانظر كيف كان كل منهم سببا في هلاك صاحبه، هؤلاء بالتزيين، وهذا بالفعل.

قال صاحب الظلال:والذي عقرها هو هذا الأشقى، ولكنهم جميعا حملوا التبعة وعدوا أنهم عقروها؛لأنهم لم يضربوا على يده، بل استحسنوا فعلته، وهذا مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية في التكافل في التبعة الاجتماعية في الحياة الدنيا، لا يتعارض مع التبعة الفردية في الجزاء الأخروي حيث لا تزر وازرة وزر أخرى، على أنه من الوزر إهمال التناصح والتكافل والحض على البر والأخذ على يد البغي والشر.

أقول: بل هم الذين طالبوه واعتمدوا عليه في هذه الجريمة، كما حكى القرآن في سورة القمر﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر﴾فهم لم يرضوا فحسب؛ولم يباركوا فعله فقط؛ولم يكن كل دورهم مجرد الاستحسان؛وإنما هم الذين أوعزوا إليه، وذهبوا إليه، ولا شك أنهم شجّعوه، وأسمعوه من كلمات المدح والثناء على جرأته وقوته ورجولته، بما يعني أنه ليس لهذه المهمة الكبيرة أحدٌ غيره، على عادة أهل الفساد والضلال، الذين يرتكنون على جهلاء القوم وسفهائهم في تحقيق مخططاتهم الدنيئة، والمقصود أن مشاركتهم كانت تحريضا ودفعا، ولم تكن مجرد السكوت الذي يفيد الرِّضا، وإن كان السكوت وحده

(١) سورة الشمس: آية ١٤
(٢) سورة القمر: آية ٢٩، ٣٠، ٣١

هنا جريمة تكفي وحدها لاستحقاقهم العقوبة حسبما ذكره صاحب الظلال فيما نقلناه عنه قريبا.

❁❁❁

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه.

وبعد

فهذه جولة وسياحة إيمانية وصحبة مع كتاب الله وسنة رسوله، حيث وقفنا فيها على حديث القرآن الكريم عن الصداقة، وقد ظهر لنا أن القرآن الكريم أكد على حق الصديق، وذكر أثره في الدنيا والآخرة، كما حث على مراعاة حقه، واعتنى ببعض الآداب التي ينبغي مراعاتها مع الصديق.

وفي ختام هذه السياحة نسأل الله أن يرزقنا صحبة الأخيار، وأن ينفعنا بهم في الدنيا والآخرة، وأن يجنبنا صحبة الأشرار، ويحفظنا من آثار شرورهم في الدنيا والآخرة، ونفعنا الله بالقرآن الكريم، وبما فيه من الهدى والذكر الحكيم، وصلى الله وسلم وبارك على النبي المصطفى الأمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الحمد لله

المصادر والمراجع

م	المرجع	المؤلف	دار النشر أو الطبع
١.	إرشاد العقل السليم إلى مزايا القُرآن الكريم	أبو السعود محمد بن محمد العمادي(ت٩٥١هـ)	دار إحياء التراث العربي/بيروت
٢.	أضواء البيان في إيضاح القُرآن بالقرآن	محمد الأمين بن محمد بن المختار الشنقيطي(ت١٣٩٣هـ)	دار الفكر للطباعة والنشر/بيروت١٤١٥هـ
٣.	أنوار التنزيل وأسرار التأويل	البيضاوي(ت)	دار الفكر/بيروت
٤.	بحر العلوم	أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي(ت)	دار الفكر/بيروت
٥.	التسهيل لعلوم التنزيل	محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي(ت٧٤١هـ)	دار الكتاب العربي/لبنان١٤٠٣هـ
٦.	تفسير القُرآن العزيز	عبد الرزاق بن همام الصنعاني(ت٢١١هـ)	مكتبة الرشد/الرياض١٤١٠هـ
٧.	تفسير القُرآن العظيم	أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي(ت٧٧٤هـ)	دار الفكر/بيروت١٤٠١هـ
٨.	التفسير الكبير[مفاتيح الغيب]	فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي(ت٦٠٤هـ)	دار الكتب العلمية/بيروت١٤٢١هـ
٩.	تيسير الكَريم الرحمن في تفسير كلام المنان	عبد الرحمن بن ناصر السعدي	مؤسسة الرسالة/بيروت١٤٢١هـ
١٠	جامع البيان عن تأويل آي القُرآن	أبو جعفر محمد بن جرير الطبري(ت٣١٠هـ)	دار الفكر/بيروت١٤٠٥هـ
١١	الجامع لأحكام القُرآن	أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي(ت)	دار الشعب/القاهرة
١٢	الجلالين	جلال الدين المحلي/ وجلال الدين السيوطي(ت٩١١هـ)	دار الحديث/القاهرة
١٣	الجواهر الحسان في تفسير القُرآن	عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي	مؤسسة الأعلمي للمطبوعات/بيروت
١٤	الدر المنثور في التفسير بالمأثور	عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي(ت٩١١هـ)	دار الفكر/بيروت١٩٩٣م
١٥	روح المعاني في تفسير القُرآن العظيم والسبع المثاني	أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي(ت١٢٧٠هـ)	دار إحياء التراث العربي/بيروت
١٦	زاد المسير في علم التفسير	عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي(ت٥٩٧هـ)	المكتب الإسلامي/بيروت١٤٠٤هـ
١٧	فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير	محمد بن علي بن محمد الشوكاني(ت١٢٥٠هـ)	دار الفكر/بيروت
١٨	الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل	أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي(ت٥٣٨هـ)	دار إحياء التراث العربي/بيروت
١٩	المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز	أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي(ت٥٤٦هـ)	دار الكتب العلمية/لبنان١٤١٣هـ
٢٠	مدارك التنزيل وحقائق التأويل	النسفي(ت)	

٢١ معالم التنزيل	البغوي	دار المعرفة/بيروت
٢٢ غاية الرغبة في آداب الصُحْبَة	الحافظ جلال الدين السيوطي	دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع ٢٠٠٠م
٢٣ آداب الصُحْبَة	السلمي	
٢٤ إحياء علوم الدين	الإمام أبو حامد الغزاليّ	
٢٥ رسالة الصداقة والصديق	التوحيديّ	
٢٦ التحرير والتنوير في تفسير القرآن	الشيخ محمد الطاهر عاشور	
٢٧ فتح الباري شرح صحيح البخاري		
٢٨ صحيح مسلم بشرح النووي		
٢٩ سنن الترمذي		
٣٠ سنن النسائي		
٣١ سنن أبي داود		
٣٢ مسند الإمام أحمد		
٣٣ المعجم الكبير للطبراني		
٣٤ المعجم الصغير للطبراني		
٣٥ المعجم الأوسط للطبراني		
٣٦ السنن الكبرى للبيهقي		

فهرس المحتويات

مقدمة ٢

تمهيد ٤

المعاني اللغوية للفظ "الصُحْبَة" ومرادفاته: ١١

أنواع الصُحْبَة..... ١٨

أهمية الصُحْبَة ومدى الحاجة إليها ٢٨

فضل الصُحْبَة..... ٣٠

أثر الصُحْبَة وخطرها..... ٣٧

صفات الصاحب الصالح وشروطه..... ٤١

آداب وحقوق الصُحْبَة..... ٤٨

نماذج قرآنية لصحبة الخير وصحبة الشر .. ٧٧

الخاتمة ٨٧

المصادر والمراجع..... ٨٨

فهرس المحتويات..... ٩٠